مقَامَاتُ المـكَّاوي

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: مقَامَاتُ المكَّاوي
التأليف: صـلاح المكـاوي
موضوع الكتاب: أدب
عدد الصفحات: 192 صفحة
عدد الملازم: 12 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/26631
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 626 - 8

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

صلاح المكاوي

مقَامَاتُ المكَّاوي

حديثُ ابن أبي العيْنين

تقديم

أ.د/ عبد الباسط عطايا أ.د/ عبدالرحمن فودة

ناقد الجيل

محمد دحروج

دار البشير للثقافة والعلوم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إهداء

* إلي كل يراعٍ يرشُف من محابرِ الإبداع.

* إلى أفاضلَ وفُضلياتٍ، دفعوني دفعًا لنشر المقامات.

* إلى ذوي الكلام البديعِ النَّفيس، إلى جميع أصدقائي على (الفيس).

* إلى كريم أَرومتي، وفخر قريتي؛ الناقد الأريب والمفكر الأديب، الذي حفّـزني وفجَّر في غُلَّتي ينابيع الأدب، وأماطَ عنّي لِثامَ الدُّونيّةِ والحـرَج؛ إلى الوالـد المهندس:

عبد العـزيز محمد فـرج.

* إلى روح أستاذي ومُعلِّم الناس الخير الأستاذ:

طاهر محمود عطية الحفني

اهنأ في مَرقدِك؛ فهذا نبتُكَ يُزهر، وغرسُك يُثمر.

صلاح حامد المكاوي

الحمد لله واهب البيان والفصاحة، ألهم الألسنَ جميل القولِ وأتاحَه؛ لتلهجَ[1] بشكره في النَّصَبِ[2] والراحة، فينسابُ اليراعُ مُدبِّجًا ومُسطِّرًا، بديعَ صنع الله في الأكوان معطِّرًا، لكن يُعييه الحصرُ فيبقى حائرًا، ولو صار ماءُ البحارِ مِدادَه لقَصَّرا ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]

فسبحان الذي أنقذنا بنور العلم من دياجير[4] الجهالة، وهدانا بنور الوحي من التردِّي في دَرَك الضلالة، وأرسل رسوله بالهدى إرشَادًا لنا ودلالة، وأصلي وأُسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله خير البشر، أجرى على لسانه بيانَ ما نهى وما أمر، وجعل طاعتَه واتباع نهجه سبيلًا إلى جنات ذات أنهارٍ وثمـرْ، وجعل عصيانه ومخالفةَ أمره سببًا لمسّ سقر.

---

(١) تلهج: لهِج بذكرالله: أولع به فثابر عليه واعتاده.

(٢) النَّصَب، التَّعب والعناء.

(٣) سورة لقمان .. الآية (٢٧)

(٤) دياجير: جمع دَيجور: الظُّلمة ، ووصفوا به فقالوا: ليلٌ ديجورٌ ، وليلةٌ ديجورٌ.

وبعد، فبعونٍ من الله وتوفيق وفضل، وبغير مدده ـ سبحانه ـ لستُ لذلك بأهل؛ أسوقُ بين يديكم مقاماتي، وهي مني كأبنائي وبُنيّاتي، أُزجيها[1] لكم عصارةَ فكرٍ بل أفكار، أرَّقتْ ليلي وغازلتني بالنهار، حملتُها ـ راضيًا ـ بين جوانحي عامين، ووضعتُها مولودا كاللُّجَيْن [2]، لتبصرَ النور بعد طول مخاض، وأنا بها مغتبطٌ وعنها راض، غذوتُها إلى أن آنَ فصالها، فازيَّنت وأبدت حسنَها، ثم أينعتْ فحانَ قطافُها، وهي أمشاجٌ[3]من حياة الناس رائجة، أفراحٌ وأتراحٌ كأغصانٍ متواشِجة[4]، وكنتُ فيها أقلَّ إغراقًا في التكلُّفِ والصناعة؛ كي لا تكسد أو تبور البضاعة، وكذا جانبتُ وحشيَّ الألفاظ وغريبها، وآثرتُ مُتاحَها وقريبَها، فلا مربدَ[5] لدينا ولاعُكاظ[6]، ولا تُؤدة لفكّ طلاسمَ وغريبِ الألفاظ، ولم أُشكِّل إلا ما أشْكَل، مُتخفّفًا فتُشتَهى مقاماتي ولاتُركَل؛ لذا جاءت سَلسةً مُنسابةً ميسورة، تُحاكي واقعًا وترسمُ من خلاله الصورة، يرويها ابنُ أبي العينين من المنصورة، في (البوهـا)

(١) أُزجيها: أسوقُها، أُقدِّمها.

(٢) اللُّجين: الفِضّة.

(٣) أمشاج: أخلاطٌ ممتزجة مُتباينَة الصّـفات.

(٤) مُتواشجة: مترابطة، مُتشابكة، مؤتلفة. تواشجت عروق الشجرة: اشتبكت.

(٥) مِربَد: سوق المِرْبد: مكان كان يجتمع فيه الشّعراء بالبصرة.

(٦) عُكاظ: من أسواق العرب، كانت القبائل تجتمع بها كلّ سنة، للتفاخر وكان الشّعراء يلتقون فيها فيتناشدون ما أحدثوا من الشِّعْر.

قريته ومسقط رأسه، مؤمِّلا في غده، مطيحًا بيأسه، ستضحكُ معه ـ أحيانًا ـ بملءِ فيك، وتصيبُك الدهشةُ ـ حينًا ـ وتعتريك، ويُغالبكَ الدمعُ على أبناء جلدتك وذويك، ويحدوك الأملُ ولا ينقطعُ الرجاء؛ فسبحان باسط الأرض ورافع السماء!

ولقد رصَّعها الشاعر (طه رضوان) برائع القريض[1]، وكذا بالتورية والمعاريض؛ فهو شاعر روّضَ وأذلّ الشيطان، وأرغم أنفه فكان ما كان؛ آله حريقي وعارَك السوق، فألهبَ المشاعرَ ودبّجَ مايروق، وامتطى بحور الشعر وصارعَ الأمواج، ليستلَّ فُراتَها من الملح الأُجاج إلا (المقامة الكُتَّابية) فلقد ذُيِّلت برائع الأشعار، من الشاعر المتألق(مصطفى الجزار)، وكذا (المقامة النظاريّة) ولاغَيْر، مُهداةٌ مِن صديقي الشاعر (محمد خير).

ثم (المقامة الأجاوية) لشاعر الابتهالات العَليّة (طارق إسماعيل أبوأحمد)، فبرائق حرفه كم نزهو ونسعد!

فهلموا معي لتروا الملحمة، والقلوبَ تخفقُ في ساحة المحكمة، ومعلمًا بل شاعرًا ينشِدُ الأشعار، وظريفًا يسوقُ طرائفَ العربِ والمُلَحَ والأخبار، ولترمقوا حبّات الطماطم على جيدها، والبصل الأخضر يتدلّى على خصرها،

وستبصرون النارَ تشرئبُّ يعلو لهيبُها الأرجـاء، كأخطبوطٍ هي أو كأنها الحـربـاء، وترقبون الحلاقَ وقد جلس على مصطبةٍ في الشارع، وشمّر ذراعيه

(١) القريض: الشعر.

كمن يصارع، ولتقفوا قبالة رشـيد، إذ يلوحُ هناك من بعيد؛ مركبٌ خشبيّ مهترئ، لم يُبد أحدٌ عليه اعتراضًا أو يجترئ، ولتتذوقوا السكر؛ إذْ الطعومُ بدونه حقيرة، والحلوق بغيره مريرة، وسأصطحبكم إلى السوق حيث تسمعون فيه أغلظَ وأكذبَ الأيمان، وكذا الحَلف بالطلاق من النسوان، وسأنتظرُكم على أحـرِّ من الجمـر؛ لتركبُوا معي الإكسبريسَ من ميت غَـمرْ، ولتشربوا من قُلتي الفخارية المُعلَّقة بغصن الصفصافة، وشغّالاتُ النحل تطِنُّ حولها طـوّافة، وتُتابعوا حديثي للنظارة: تبًّا لكِ من شوَّافةٍ للقراءة! لقد أسأتِ إلىّ أيَّما إساءة؛ أتحسّسُ السطورَ فتُغازلني متراقصة، وأكتبُ فتتداخلُ الحروف متناقصة، وستزرفون الدموعَ حين تجدون، ألبان الأطفال فقد فاقت حدّ الجنون، وكأنها مخدّرُ الحشيش أوالأفيون، إذْ تخطّى سعـر العلبة الحدود والأسلاك؛ لألبانٍ تُدعى: « بيبى لاك»...

وتمتدُ الصحبةُ إلى عهدِ الكتاتيب، وزمانٍ عن بالنا لايغيب، وحديثي عن الشيخ مُحمَّد عطية: وضيءِ المُحيَّا أبيضِ اللحية، وكأنه الصحابيُّ الأنصاريُّ (دِحْية)، صوته مجدولٌ بالخشوع، وانكسارٌ لله وخضوع...

وعن الشِّوار تقرءون: واشتروا ملاعق وسكاكين وكاساتٍ وغيرها، وأشياءَ تعجز المعاجمُ عن حصرها، ثم البُسُط من أفخر السجاد، كان الله في عون العباد، وتعرضتُ لعادات وتقاليدَ بالية، في أزمنةٍ مُنصرمةٍ خالية: وبدأَ

مهرجانُ التجريس؛ ليطولَ عمرُ الفتى عتريس، فأركبوا غندورةَ الحِمارة، وراحت تُبدي في ذلك مهارة...

ومِن الفئران تعجبون، إذْ بلغ من ذكائه أن فطنَ للأسياخ، وتعرّف على المصايدِ والفِخاخ، فوضعتُ في طريقه الغـراء، وكمنْتُ[1]بعيدًا في اختباء؛ ليلتصقَ في الفخِّ كما أشاء، فاسْتلَّ نفسَه كالشعر من العجين، ومـرَّ كما يمرُّ في الزُّبـدِ السكين...

وتابعوا معركةَ أبي الحُصيْن؛ إذ لعقَ المتثعلبُ بمكر شفتيه، وما انطلتْ تلك الحيلةُ عليه، وهـزَّ رأسه ورفع قدميه، وأخذ يقفـز لأعلى وينُط، وينال بأنيابه من البط؛ يخْمِشُ[2] هذي و تلك يقضِمها، وأخري قد انتزعَ رقبتها ولم يرحمْها...

ومِن (الشتائية): وفجأة دوّى دويٌّ كأنه القنابل، وانهمر الماء على إثرها وابل، زخَّاتٌ[3]تدفعُها زخَّات، يعقبها الثلجُ كُراتًا فكُرات، وفُتِحت من السماء الصنابير، وكاد العقل لهول ما أبصرنا يطير...

---

(١) كمنْتُ: استترتُ، اختبأتُ.

(٢) يخْمِشُ: خَمَشَ فلانًا : جرح بَشَرَته في أي موضع من جَسدِه، جرح بشرة وجهه أو غيره من مواضع جسمه.

(٣) زخّات: الزَّخَّةُ : اسم مرَّة من زخَّ: دُفْعة من المطر ، هطول المطر بغزارة.

وفي (الاعتكافية) عبقٌ وروحانيات، وكرمٌ من الله وتجليات؛ إذ ضربنا في مؤخرة المسجد الأخبية، وأودعناها حوائجَنا والأغطية، واستعنّا بالله على الطاعة، ابتداءً بصلاة الجماعة...

ثم (المشخصاتية) ومنها: وهم الذين لم تُقبل ـ قبلُ ـ لهم شهادة، وكانوا دائمًا في المؤخرةِ لا الريادة، فأذلهم القضاةُ وحطّوا من شأنهم؛ لاختِرامهم المروءة وتَبذُّلِ[1] هندامهم..

و(المكّاوية)وفيها: ونودي في الصائمين أنْ هُبّـوا، لدعوةِ الأجَاويدِ ولَبُّـوا، فالموائدُ قائمةٌ وممدودة، والسُّمُطُ مبسوطةٌ ومشدودة، غير معتادةٍ ولامعهودة؛ لايرى الأولُ عليها الآخر، وكأنها الخِضَمُّ الزاخـر...

وختمتُ بالمقامة (الكِرْشِية) وقلتُ فيهما: لقد جعلتَ الطعامَ صنعتَك، و شهيَّ صنوفها قبلتَك، والحلوَ والدُّهنَ ديدنَك وشِرعتَك، فكان من أمركَ ما كان، فلا تكاد تبرح من الثِّقل المكان، ثم أردفت (القهوجيّةِ) و(الأجَاويّة) بالختام، وكان فيها حسنُ الكلام: وعندئذٍ احْمرَّ وجهُها من الخجل، كبِكْرٍ تُستأمرُ لزواجها على عجل، يتراقصُ مُحيّاها غِبطةً وسعادة، ولا تأبهُ بنارٍ تكويها بزيادة، تتماوجُ للُقيا حبيبها الفنجان..

وأجا مدينةٌ يرحلُ الحُسنُ إليها ولايعود، يفصلُها فرعُ النيلِ عن جارتها سمنُّود، ويعلوه كوبري حديديٌّ أثريٌّ يروق، افتتحه ـ قديمًا ـ جلالةُ الملك فاروق...

(١) تبذُّل: تبذَّلَ: تَدَنَّى في سلوكه وخُلُقه ، ترك الاحتشام والتصوّن ، تميل إلى التَّبذُّل في ملابسها.

وأخيرًا أقول:

ولقد أشار عليّ أساتذةٌ أكاديميون؛ أزاهرةٌ ودَرعميون، وأصدقاءُ للأدبِ عاشقون، بالتقاط تلك الدُّرر، ونظم حبّاتها النّضيدةِ والصور، وكنزها ـ مُكرَّمةً ـ في ضِمَامَة[1]؛ لتكونَ أثرًا بل معلَمًا وعلامَة، يحويها سِفْرٌ[2] بين دَفَّتيه، يُشارُ بالبنان عليه، وتُشدُّ ـ في معرض الكتاب ـ الرحالُ إليه.

وكذا شعراءُ فحول، فهذا أحدهم يقول: (وكأني أرى الهمذانيّ والحريريّ بعالم الغيب يبْسُمان ويتمايلان إعجابًا وحُبورًا أن فنَّهما مايزالُ حيًّا يسعى بين يديك)[3]، وممّن دفعني لجمع شتاتها ولمِّ شملها وأخواتها؛ مجدِّدُها ومُعتلي صهْوتِها، وموقظها من مرقدها، حادينا لهذا الفن الخلَاب: المفكر الأديب د. وليد كساب، فقد علَّق عندي قائلا: (قلتُ لك: إنَّ هذا والذي جاء به بديعُ الزمانِ لَيخرُجُ من مِشْكاةٍ واحدة).

ولقد كانوا تسْعَ عشرةَ مقامَة، قدَّم لها الأكاديميُّ العلّامَة، صاحبُ المِنح وجزيل العطايا: أستاذُنا الدكتور (عبدالباسط عطايا)، وأتممتُها ـ بعد تقديمه ـ أربعًا وعشرين، وثنَّى في التقديم الدرعميُّ الأمين: الأستاذ الدكتور (عبدالرحمن فودة) مُؤصِّلا بكلماتٍ رائقةٍ محمودة، ثم ختمَ التقديم أديبُ العهدِ وناقدُ الجيل: (محمد دحروج).

---

(١) ضِمَامَة: الضِّمامُ: كلُّ ما يُضَمُّ به الشيءُ إلى غيره وضمامُ الشيءِ : ما يشمله وينطوي عليه.

(٢) سِفر: السِّفْرُ : الكتابُ أَو الكتاب الكبير، والجمع : أَسْفار.

(٣) من تعليقٍ للشاعر الدرعمي، وصديق الفيس بوك (محمد ناجي).

وقد كنتُ عن طباعتها ونشرها في إحجام، إلى أن شاء الله الواحد العلَّام، حيث فاحَ في المُنتدياتِ عبقُها، وداعَبَ الأُنوفَ نشرُها، وذاعَ في الواجُوهِ[1] صيتُها، وكَلَّ مَتْني من الردِّ على تعَاليقِها.

وبعد تنقيحٍ وتدقيقٍ وتنسيق؛ آثرتُ أن أكسوَها مايليق، فاصطحبتُها وراويها ابن أبي العينين، أهيمُ على وجهي لا أدري إلى أين، فاستعنتُ بالله القويّ المُتعال، وشددْتُ وأبو العينين الرحال، وانطلقنا إلى برّ المحروسة في الحال، تُشيِّعُنا دعواتُ الأحبَّةِ والآل، أتأبَّطُ ـ مُؤمِّلا ـ المقامات؛ لتتلقَّفها للطباعة الماكينات، إلى أن صارت ـ بفضلِ الله ـ سفرًا قشيبا[2]، ومولودًا إلى قلبي حبيبًا، والحمدُ الله أولا وآخرا، شاكرًا راضيًا وصابرا؛ فهو وحده المُوفِّق والمستعان، وإليه اللُّجأ وعليه التُّكلان.

المؤلف: صـلاح حامد المكاوي

البوها ـ ميت غمر ـ دقهلية

في: ٢٣ من رمضان١٤٣٩هـ

٨ من يونية ٢٠١٨م

---

(١) الوَاجُوه: وسيلة التواصل الاجتماعي (الفيس بوك).

(٢) قشِيبًا : جديدًا.

(صلاح المكاوي والبعث الجديد للمقامة العربية)

لم تكن المقامةُ لتختفي من مسيرة الأدب العربي، ولا تزالُ اللغةُ العربيةُ حاضنتَها الأولى ورافدَها الأساس، إذ ظنّ البعضُ أن وجودَ القصة يُعد تطورًا لها وامتدادا مُعدَّلا، وظهرت في ذلك دراساتٌ عديدة متنوعة، ويأتي في مقدمة هذه الدراسات كتاب (أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة) محمد رشدي حسن.

وجعلَ مقامات المويلحي مرحلةً وُسطى في سبيلِ هذا التطور وذلك الامتداد، بدأ هذا وكأن المقامة فقدت حيثيات وجودها، أو حمارٌ زمنيٌّ أوصلَ الروائيين إلى القصةِ والروايةِ، ثم تلاشى في الأثير، وقد عشتُ هذه الدراسات في مرحلة التمهيد من الدراسات العليا واستقرت هذه النتيجة في ذهني وكأنها حقيقة مُسلَّمة، خاصة في إطار تطور الأساليب النثرية من السَّجعِ والمحسِّنات البديعية الأخرى، إلى التَّرسُّلِ غير المتكلّف، إذ قرَّت مقولةٌ خبيثةٌ مفادها أن البديعَ يقتلُ روحَ الطلاقة والانسيابية في الإبداع

وأصبحت الأساليبُ النثرية التى يدخلُ البديعُ في تكوينها الأسلوبي جِنسًا أدبيًّا غريبا من الدرجة الثالثة أو الرابعة ..

عشتُ ردحًا من الزمن وأنا على اليقين بأن المقامةَ جنسٌ أدبيٌّ اندثرَ وانتهى، حتى سافرتُ إلى سلطنة عمان ومن خلال متابعاتي للأدب ودراساته النقدية؛ وجدت المقامةَ تعيشُ في أزهى عصورها من حيث النِتاج والنشر والتنوع يمارسها الشيوخ والشباب من المبدعين، فراعني ذلك دَهْشًا مما أرى وكأنني انتقلتُ لا إلى سلطنة عُمان فقط، بل إلى عصرِ بديع الزمان، وتلقيتُ في هذا الصدد مقامات الشيخ (عبدالله الخليلي) وإذْ بها تستوي على سُوقها جنسا أدبيًّا مستمرا متواصلا لم يخب؛ لأنه واتى مُلابسات ديمومته من حيث اللغة والبيئة والحاجة والذوق العام، كما اطّلَعتُ على إبداعات الشباب أيضا فوجدتُهم يصِلون اللاحقَ بالسابق، وتتطورُ على أيديهم المقامةُ، ولا أنسى في ذلك (صالح الشعيبي) فقد كان يتمتعُ بروح فكاهيةٍ وثقافة لغوية وقدرة على السَّرد.

طبعا اختلفت الموضوعات عن سابقتها فلم تعد الكُدْيَةُ[1] هي عمادُ المقامة بل عالجتْ أحداثَ العصر وما جدَّ، كما كان ذلك واضحا في مقامات الخليلي ..

(١) الكُدْيَةُ : حرفةُ السائل المُلِحِّ

مقامات المكاوي:

وعدتُ إلى مصر وأنا في حالة من التَّحيّر، لماذا تترعرعُ المقامة في عمان وتموتُ في مصر رغم وجود المبدعين الحذقين في اللغة العربية؟!

(الأفاويق في الدراسات الأدبية) ص ٢٩١ وما بعدها عبدالباسط عطايا.

وكانت تلك مفاجأة لم أتوقعها وأنا أتابعُ أصدقائي على صفحتي (الفيس بوك) وجدتُ صديقًا ينشرُ مقاماتٍ على صفحتهِ فحسبتُه ينقِلها من كتب التراث كي يثري بها منشورات صفحته، لكن بعد أن تابعتُها في أكثرِ من حلقةٍ تأكدت أنها من نِتاجه وأسلوبه؛ فردَّ غُربة المقامةِ العربية، وكشف عن وعيٍ حاضرٍ معاصرٍ بهذا الجنسِ الأدبيِّ الفذ ..

(صلاح المكاوي) مقاميٌّ من الطراز الأول، وكاتبٌ طُلَعَةٌ[1] نمتْ مقاماتُه على درايةٍ ووعيٍ باللغة والاشتباكِ معها، ووعيٍ بالحاضر بالعصر الذي كانت مظاهره وأحداثه تلمعُ على صفحة المقامات.

تسْعَ عشرةَ مقامة، ولا أدري هل العدد مقصود (عليها تسعة عشر)؟

(١) طُلَعَة: الطُّلَعَةُ : النابه، الواعد، الكثِيرُ الطلوع أو التطلُّع ، يستوي فيه المذكر والمؤنث

هي لواحةٌ للعصرِ الذي تقزَّمتْ فيه أمورٌ ما كان ينبغي لها ذلك، تقزّمتْ اللغةُ على لسان أهلها، تقزّمتْ أحوالُ المجتمع المصريّ، وتراجعت قيمةُ الحضور للأخلاقيات الجميلة.

أيًّاما كان الأمر فقد جاءت المقاماتُ زاهيةً بحضورها القوي على يد (صلاح المكاوي) من حيث اللغة الرشيقة، والسبك الدقيق، والحبك الأنيق، والموضوعات الضاغطة على أعصابِ المجتمع، مستخدمًا آليات الكتابة المقامية: التقنُّعُ خلف الرواي (ابن أبي العينين) والسَّجعات الواكزة التي تقوم بدور مشهودٍ في ربط الأحداث وتتابُعها، إذْ المحسنات البديعية لها دور مهم في تكوين النص يتجاوز ما اعتقدناه زمنا طويلا.

فليس البديعُ حِليةً تزيدُ عن الحاجة بل هو ضرورةٌ في الأسلوب حين يستدعيه الأسلوب .وقد وقف عند هذه القضية الأسلوبية د محمد عبدالمطلب في كتاب (بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي).

بمعنى أن البديعَ ليس ترفًا أسلوبيًا في الكلام، وإسهامُه في تكوين المقامة عملٌ مهمٌ من أركان البناء فيها.

وهذا ما رأيناه في المقامات المكَّاوية تِباعا.

وإذا كانت (مقامات المكاوي) استهدفت ظواهرَ مجتمعية متنوعة لمسها الكاتبُ إلا أنها أيضا استهدفت الآتي:

- الغاية التعليمية والتربوية الأسلوبية إذ هي تسهمُ في إرشادِ الدارس أو القارئ إلى كيفية بناء الأسلوب.
- الغاية اللغوية، إذ تُسهِمُ في بناءِ مُعجمٍ لُغويٍّ مُبسَّطٍ للقارئ من حيث المفردات والتراكيب.
- تنميةُ الذائقةِ الفردية العربية، وتنميةُ الوعي باللغة عامة.
- ردُّ الوهَـنِ الذي أصاب اللغةَ العربيةَ على ألسنةِ المتحدثين بها.

وكل هذا وغيره يأتي في اعْتِلاقٍ[1] تامٍ مع قضايا فاعِلة وشاغِلة مما يجعلُ للقيمة اللغوية أهميةً وضرورة يكون الفكاكُ منها ضربًا من العبث المْجوج.

تبدأ المقاماتُ من المقامة المَحْكَمية إلى المقامة الاعتكافية مرورًا بالمدرسية، والفُولية، والحلاقية، والرَّشيدية، والسُّكرية، والحَريقية،

والقِطارية، حتى نهاية المقامات ..

---

(١) اعْتلاق: ترابُط، تضافُر، نُشوب.

رحلةُ القارئ رحلةٌ مَاتعةٌ رائعة، ولا أحبُّ المصادرةَ على ذوقِ القارئِ أو قطع نشوة التَّرقبِ والتشوقِ، فأدعُه ونشوته وتشوقه وترقبه..

ولا أتغافلُ عن تحيتي للكاتبِ المبدع، والأديب الأريب الأستاذ صلاح المكاوي الذي أتوسَّمُ أن تشهدَ المقامةُ العربيةُ على يديه عصرًا زاهرًا يعيدُ للمقامةِ مكانتَها جنسًا أدبيًا مُستقِلا يتنفسُ على يديهِ، لم ولن ينقرضَ مهما بَدا له من تأثير في تطوُّرِ المشهدِ الرِّوائيِّ العربيِّ ...

أ. د/ عبدالباسط عطايا

أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية

بالمنوفية جامعة الأزهر

عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مداد

عضو لجنة التحكيم لترقية الأساتذة

والأساتذة المساعدين بجامعة إسلام آباد

عضو مُحكِّم بمجلة العلوم الاجتماعية الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على رسول الله وبعد..

فإن فنَّ المقامات فنٌّ عربيٌّ أصيلٌ ابتدأ التأليف فيه «بديعُ الزمان الهمذاني» ٣٩٥هـ، ثم تلاه «أبو القاسم الحريري » ٥١٦هـ ، و«الزمخشري »٥٣٨هـ، و«ابن الجوزي» ٥٩٦هـ، و«السَرَقَسْطيّ» ٥٣٨هـ، و«السُّيوطي» ٩١١هـ وغيرُهم. ثم تطاول الزمانُ وكدنا أن نفقدَ هذا الفنَّ الجميل، الذي يتكئُ فيه مبدعُه على ألوانٍ من البلاغة العربية لعل أبرزها «فن البديع»، فتأتي الجملُ محلاةً بالسَّجعِ والجناس فتأخذ بألبابِ الناس؛ ويُضمِّنُها الكاتبُ شعرًا له أو لغيره؛ في إطار قصةٍ قصيرةٍ يبدأُها الراوي ويحكيها ويكونُ له بطلٌ يُجري ما يشاءُ على لسانه.

وهذا الفنُّ ليس للتسلية والتَّرفيه، كما أنه ليس لإبرازِ موهبة كاتبه وقدرته على ناصية اللغة فحسب، وإنما هو أيضًا فنٌّ ناقدٌ مُوجِهٌ، يأخذُ بالقلوب والأسماع تذوقًا، ويعالجُ ما يحتاجُه المجتمعُ من تقويمِ مُعْوَجٍّ أو تصحيحِ مَسار.

وقد كتبَ في هذا الفن في عصرنا الحديث ثُلَّةٌ من الأدباءِ والكُتَّاب، لعل من أبرزِهم الكاتب المهندس "ياسر قَطامش"، والكاتبُ الداعية "عائض القرني"، والكاتب الأديب "وليد كسّاب"، و"عبدالعزيز الحربي" في مقاماته المَكيّة، وغيرُهم ممن لم تُسعفني الذاكرةُ بذكرِ أسمائهم الآن.

وغالبًا ما يتمتع كاتبُ المقامةِ بخفَّةِ الظلِّ وجمالِ الروح، والقدرةِ على التعبير بأسلوبٍ سهلٍ رصين يُناقش فيه قضايا مجتمعهِ أو أمتهِ أو بعضَ الأمورِ الخاصةِ به.

وكاتبُنا المبدع «صلاح المكاوي» أديبٌ أريب، واحدٌ من أصحاب المقامات المعاصرين، قرأت له على صفحات البِساط الأزرق (Facebook) فلفتني حُسنُ أدائه وتمكنه من اللغة، كما لفتني تناوله لقضايا ومشكلاتٍ يمر بها المجتمعُ المصري، خصوصًا في الريف المصري. وهو يعتمدُ الراوي ابنُ أبي العينين وإن كان أغفل ذكرَ البطل، كان أصحابُ المقاماتِ السابقين يذكرون راويًا وبطلاً، لكن صاحبُنا «صلاح المكاوي» لم يخترْ بطلًا معينًا وكأنه أراد أن يكونَ الحدثُ الذي يتناولُه في المقامة هو البطلُ المَعْنِيّ، سواءٌ كانت عاداتٍ قديمة أو تقاليدَ بالية، يركزُ الكاتب على التخلصِ منها.

وقارئ هذه المقامات التي بين أيدينا يتجول في موضوعات مختلفة وكأنه يوقِفهُ على مشكلات الحياة الزوجية وما يحدث أحيانًا بين الأزواج فيتخاصمون إلى القُضاةِ، أو يعالجُ مشاكلَ التعليم، أو يعالجُ مشاكلَ

ما يتعلقُ بتجهيزِ العَرائس والمبالغةِ في ذلك، وأيضًا بعض الموضوعات القديمة التي يُعالجها بشيء من الطَّرافةِ واللطافة، كمقامة «الخَلاقيّة» وهي من المقامات التي استوقفتني بل كانت من المقاماتِ الأولى التي قرأتُها لـ «صلاح المكاوي» وقد عالجها بأسلوبٍ جميلٍ، ثم كأن الشاعر الرائع (طه رضوان) أعادَ صياغتَها مرة أخرى بشعرٍ رائقٍ جميل. «صلاح المكاوي» لم يكتب في المقامة فقط، وإنما كتبَ في السيرةِ الذاتية «حارة أبو موسى» وكتبَ كذلك في القصة القصيرة، قرأتُ له قصة «لن أموت»، وقصة «دراجة سعد»، وقصة «شجرة توت»، و «إليك أيها القبر». كما أنه كتبَ مقالاتٍ متعدده قرأت منها «اللسان والعيطموس» وكأنه يطلع الناس على معنى كلمة «العيطموس» أي: الجميلة أو الناقة القويّة الفتيَّة أو الطويلة أو المرأة الحسناء. حتى أنه أيضا تناولَ موضوع السرقات الأدبية لما حدث له على وجه الخصوص في مقال كتبه ثم سرقه أحدُ السُّرَّاق.

إن «صلاح المكاوي» أديبٌ أريبٌ نتطلعُ إلى أن نرى كثيرًا من إنتاجه في قابل أيامِه بإذن الله تبارك وتعالى، نسألُ الله تعالى أن ينفعه بما قدم وبما يقدم.

أ.د/ عبد الرحمن فودة
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي
والأدب المقارن المساعد
بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

تقديم: ناقد الجيل/ محمد دحروج

١ـ (المقامةُ العربيَّةُ مرآةُ واقعٍ اجتماعيّ)

مِن أطرفِ ما أستقبلُ بهِ هَذهِ الكلمةَ أن أقُولَ إِنني تذكَّرتُ مُنذُ دقائق أنَّ لِي كتابًا عَن فنِّ المقامةِ العربيَّةِ يقَعُ في [٤٠٠ صَفحة] ـ عَلى ما أذكُـرُ ـ كُنتُ قَـد نَشَرتـُهُ ببعَضِ دُورِ النَّشرِ بالمَملكَةِ الأُردُنيَّةِ مُنذُ سنَوات .

أقُولُ هَذا لأنني لا أُريدُ أن أغتصبَ شَيئًا مِن أوراقِ صَديقنَا الكاتِبِ البَليغِ الأُستاذ صَلاح المِكَّاوي؛ فكُلُّ صَفحةٍ ها هُنا هيَ حقُّهُ ومِلْكُهُ، وإِنَّما أنا مُتطفِّلٌ عَلى مَائـدَتـهِ أقـبَـلَ في زيِّ أهـلِ العِلمِ يُـوهِمُـهُ أنـهُ صَالِحٌ مقبُولُ الأمـرِ عِندَ أربابِ الفَـنِّ .

وبكُلِّ حَالٍ؛ فَهَذا مَقَامُ إِلقَاءِ كَلمَةٍ أمَامَ التَّاريخِ ـ تاريخِ الأدَبِ في هَذا العَهدِ ـ، وليسَ مقَامَ نقدٍ ولا تنفعُ الدِّراسَةُ المُطوَّلةُ هَا هُنا؛ إلاَّ إذا جوَّزنا لأنفُسِنَا أن نَجُورَ عَلى الرَّجُلِ لأنهُ احتفَى بنَا في دِيارِهِ .

لا أُريدُ أن أنزلِقَ هُنَا فِيمَا رُمْتُ اجتِنابَهُ فَإذا بي قَـد أعـنَتُّ صَاحبنَا ؛ ولِذا أجعَلُ مَا بالأسطُرِ تقريظًا، كَي لا أكُونَ غَشُومًا ظَالِمًا غَليظًا؛ فالرَّجُلُ مِن

بَعد أن تأمَّلتُ حَالهُ بَينَ الناسِ عَلمتُ أنهُ بالخَيرِ وَالعِلْمِ مَذكُور؛ فآمَنتُ أنَّ الاقترَابَ منهُ يَفيدُني بَعضَ مَن حَولَهُ مِن ذلكَ الْجُمْهُور؛ فَلمَّا هَاتفَني ذاتَ يوم أثنَى عَلَيَّ ومَدَح، فأخَذتني نَشْوَةُ الفَرَح؛ إذ إقبَالُ الأعيَانِ سُعْد، ولا يُنتَظَرُ من بَعدِه بَعْد وقَد تأمَّلْتُ مَا فَعَل؛ فرَأيتُ أنَّ ذلكَ مَا كَانَ إلاَّ لأنهُ اكتَمَل؛ فَإنَّ العِلْمَ إذا انضَمَّ إلَى طيِّبِ الأخلاق؛ رأيتَ الحَاملَ لَهُمَا يُخاطِبُكَ كأنكَ الدَّواءُ والتِّرياق، ومَا أنتَ كَذلك، ولكِنَّهَا مَنقَبةٌ من مَنَاقِبِ أربابِ المَسَالك .

ثمَّ رَاسَلَني بَعدَ أيَّام، وكُنتُ وَسْطَ ضَجَّةٍ وزحَام، وقَالَ قَد انتَدَبتُكَ لِكتابةِ كَلمَةٍ في صَدرِ مَقَامَاتِي قَبلَ الطَّبعِ والنَّشْرِ بدَارِ البَشِير، فأنتَ عِندَنا بمَوضعِ الإجلالِ والتقدير؛ فأُخذتُ عَن نَفسي دَقيقَة، وقُلتُ: تلكَ منحَةٌ عَاجَلَت ألَمَ الشَّقيقَة، ومَا الشَّقيقَةُ إلاَّ خذلانُ الحَيَاةِ لي ، ومَهمَا يكُن من أمرٍ فَحَسبُنَا طَلَبُ المَعَالي؛ وإني لأحسَبُ أنَّ كَلمَتِي في حقِّهِ تَرفَعُني ولا تَزيدُه، فإنَّ ذكيَّ العِلْمِ لا يُدَافِعُهُ بليدُه؛ وإني لأظُنُّ أنهُ مَا طَلَبَ تَقدمَتِي إلاَّ لِدَفعِ مَا بي من حَزَن، من بَعدِ أن ضَاعَت الأُمنيَّةُ وسَقَطَت قُوَى البَدَن؛ وإلاَّ فَمَن أنا بَينَ أربابِ البيَان؟ ولَكنَّهُ اللهُ المُستَعَان .

ومَهمَا يكُن من أمـر، فَإنهُ يُـقالُ إنَّ الأثرَ محمُودٌ قَد سَر؛ فإن كُنتُ أنا كَمَا تَرَاني؛ فَعَسَى أن يقُولَ الوَقْعُ إنهُ زادَني إذ أعطَاني، وإن لَم أكُن فَمَا ضَرَّكَ أن يُقَالَ إنَّ شَيخَ المَقَامَةِ المكَّاوي بتَقرِيظِي لأُكتُوبتِهِ قَـد حباني؟

أسألُ اللهَ أن أكُونَ عِندَ حُسْنِ الظَّن،وألاَّ يُعكِّرَ مَا بَينَنَا تعَيرٌ أو مَنّ، وإني لِفَضْلِكَ شَاكِر، ولَسْتُ عَلى المَدَى بنَاكِـر .

فَلا يهُولنَّكَ مَا يُقَالُ في أمري، فاللهُ عَليمٌ بسرِّي، ولَولا إيمَاني بخَوفي؛ مَا أظهَرتُ عَلَى المَلإِ مَا أُعَانيهِ مِن وَجَعِي وَضَعفِي؛ فأنتَ غنِيٌّ عَن مِثلِي غَيرَ أنهُ الكَرَمُ والإحسَان؛ وإلاَّ فأينَ أنا مِنَ المكَانةِ والمكَان !

سِـر عَلَى الدَّربِ فأنتَ بالمَيدَانِ فَرَس، نالَ شَانئُوكَ الخَرَس .

وإنَّا في مِصرَ قَـد رَبحنَا بالمَجَالِ ذاكَ الأسَد؛ فَامضِ لا أصَابتكَ عَينٌ ولا أخَّركَ الحَسَد، رَعاكَ اللهُ في ذهَابٍ وإيابٍ واقتِحَامٍ وخُرُوج؛ وسَلامُ اللهِ عَلَيكَ مِن عَبدِهِ مُحَمَّد بنِ دَحـرُوج .

٢ـ وإذا كنَّا قد أعيتنا الحيلةُ في فهم طبيعة القوَّة المُبدعة لدى الفنَّان التي يتميَّز بها عن غيرهِ من الناس؛ فرُبما استطعنا أن نُعوِّض ذلكَ بمُناقشتنا لقضيَّة الدافع إلَى الإبداع.

لماذا يُبدعُ الفنَّان، ولماذا يكتُبُ الأديب؟

هُناك بطبيعةِ الْحالِ مُحاولاتٌ أوليَّةٌ كثيرةٌ لتفسيرِ ذلِكَ، منها أنَّ الكاتبَ يكتبُ رغبةً في كَسْبِ معاشِهِ أو حُبًّا في الشُّهرةِ .

ولا شكَّ أنَّ كُلَّ من خطَّ أفكارهُ وتقدَّم بها إلَى المطبعةِ يتوقَّع في نشرها مصلحةً مُعيَّنةً لهُ، ومع ذلك فقد كتب كثيرون تحت أسماء مُستعارة، وأنفق آخرُون المالَ مِن أجل أن تُنشَرَ أعمالهم، فنشرُ هذه الأعمال في ذاتهِ ـ وفيما يُظنُّ ـ

يُدَغدغُ فيهم شُعُورَ الزهوِ عندما يرونَ نِتاج عُقُولهم يشغلُ عقولَ الآخرين ..، ومن تلك التفسيرات كذلك: أنَّ الأديبَ لا يكتُبُ لكى يستمتع بثمار عقلِه على نحو أو آخر ؛ وإنَّما هو يكتُبُ لأنهُ يستمتعُ بعمليَّة الإبداع ذاتها ، فهذهِ المُتعةُ هي حافزه على الكتابةِ؛ لأنهُ يتخلَّص بها مِن وطأةِ الظروفِ على نفسِهِ»[1].

وبعدُ، لماذا نجدُ أنهُ لا بدّ من تفرقةٍ بين الكاتبِ والمُبدعِ وإن كان وجُودهُما معًا في ذاتٍ قلميَّةٍ واحدةٍ لا يُعدُّ أمرًا غريبًا؟

لا بُدّ مِن أن نُفرِّقَ بينهُما؛ لأنَّ الكاتبَ ـ هو في غَالِبِ الأمرِ ـ يُناقِشُ أمُورًاتُناطُ بفلسفةِ القضايا العامَّة، بَينمَا المُبدعُ يَدورُ حول الخاصِّ والعام، كقولنا : إنَّ مُحَمَّد حسنين هيكلٌ كاتبٌ، وإنَّ مُحمَّد عَبد الحَليم عَبد الله مُبدعٌ، وإنَّ العقَّاد كاتبٌ ومُبدعٌ في آنٍ؛ فالأوَّل سياسيٌّ تُناطُ كتاباته بالشئون السياسيّة والعسكريَّة، والثاني روائِيٌّ، والأخيرُ هُوَ السياسيُّ الذي هاجمَ الشيوعيَّة والنازيَّة وهُو أيضًا صاحبُ رواية (ساره) ـ التِي هي قصةٌ حقيقيةٌ وقعت لهُ.

إذن، فالمُبدعُ يستطيعُ أن يجعلَ الخيالَ عِمَادَ أمرهِ، ورُبمَّا عوَّلَ على الواقعِ في كثيرٍ أو قليلٍ من هذا الأمرِ الذي هُو الإبداع .

---

(١) الدكتور عِز الدين إسماعيل، «التفسير النفسيّ للأدب» ، [ص: ٤٢ / دار العَودة ودار الثقافة: بيرُوت / د . ت] .

فمن هُنا يُمكنُ أن يجعلَ المُبدعُ حياتهُ سرًّا لإبداعهِ وفنِّهِ، فهُو يُخرجُ مكنوناته ومكبوتاتهِ ويُصوِّرُ آماله وآلامهُ في قالبٍ أدبيٍّ، وعلى أنهُ قد يُوصفُ بأنهُ يدُور حولَ الذاتِ في كتاباتهِ إلاَّ أنَّ الذاتيَّة رُبَّما كانت قمِينةً بإخراجِ فنٍّ عَالٍ مِن طَبقَةٍ رفيعَةٍ، كما فعل طه حُسين في رائعتهِ (الأيام)، وكما فعلَ غيرُهُ، والمقامةُ العربيَّةُ جنسٌ من أجناسِ الإبداعِ النثريِّ، تُمكِّنُ ناسجها من القُدرةِ على عمليَّة البَثِّ والتوصيلِ من دُونِ صُعُوبةٍ ما دامَ الأديبُ قادرًا على تطويعِ اللغة وجعلها خادمةً لمضامينهِ .

ومن نظر في مقاماتِ القُدماءِ علمَ أنها لَم تخلُ من جعل بعضها مطيَّةً للتعبير عن الهَمِّ الداخليِّ والتنفيسِ عنهُ، الذي يُعدُّ من جِهةٍ أُخرى وصفًا تصويريًّا لحقيقةِ المُجتمعِ الذي يحيَا المُبدعُ بينَ جنباتهِ .

وصاحبُنا في مقطوعتهِ (فضفضة) يُذكِّرنا بقضيَّةٍ قديمةٍ تحدَّثَ عنها أربابُ الفنِّ في مقاماتهم، وهيَ حُرفة الأدبِ، إلاَّ أنهُ يتحدَّث ها هُنا عن واقعهِ ومُجتمعهِ هُوَ، ومن تأمَّل هذهِ الظاهرةَ علمَ أنهُ لَم يُجسِّدهَا بالصُّورةِ الجليَّةِ إلاَّ الشُّعراءُ وأصحابُ المقامةِ ـ من أهل النثرِ ـ ، والأمثلةُ منَ الشِّعرِ كثيرةٌ، ولي في مُناقشةِ قضيَّةِ الفلاكةِ والمُحارفةِ كتابٌ كبيرٌ بعنوانِ « الذينَ أصابتهم لعنةُ الأدب» نشرتهُ بدارِ البدايةِ الأردنيَّةِ قديمًا، فلا أُحبُّ أن أُعيدَ ضَربَ الأمثلةِ بهذهِ المُقدِّمةِ؛ وإنَّما أَلِجُ إلَى مقطوعةِ صاحبنَا .

يقُولُ صلاح المكَّاوي في (فضفضتهِ)[1] :

«صِرتُ كالغريبِ في قومي وعشيرتي ، وما انفكُّوا يقولون عنّي: مُتكبّرٌ ومُنخلِعٌ من رِبْقةِ المسئولية ومُسايَرةِ الرَّكبِ؛ إذ لم أنصَهرْ معهم يومًا في سَفاسِفِ أمورِهم الحياتيّة والمادِّية التي لايخلو منها مَحْفل، وصَدَقَ المَثَلُ القائلُ (زَامرُ الحَيِّ لا يُطرِب)،فمعظمهم بعيدون تمامًا عن حِرفة الأدب، وما يُدبِّجُ اليَراعُ، ويخُطُّ من إبداع». اهـ .

فأنت ترى هُنا ما يُوقفُكَ على ماهيَّة تعامله التركيبيِّ مع الألفاظ؛ فهو لا يتقيَّدُ بحركاتِ الحُرُوف في آخر الجُملِ، وإنما يُعطي نفسَهُ حريَّةً داخليَّةً ما دام النصُّ في نهايةِ الأمر يوافق قالب المقامة العربيَّة كما أصَّل لها الأوائلُ تطبيقًا.

أمَّا عن دراما الصورة المُرادة؛ فهو يُحسنُ تهيئة القاريء لِمَا هو بصدد الشروع بهِ (صرتُ كالغريبِ في قومِي وعشيرتِي) .

ثم يدلفُ إلى عمليَّةِ تأكيد العِلَّةِ عن طريقِ ذكر أسبابها ؛ فنراه يقول :

« فلستُ ممن تُنتَصَبُ لهم القاماتُ ، وتتطاولُ لرؤيتهم الهامَاتُ ، وتنحني لهم الرِّقاب ترحيبًا، وتُفسَحُ لهم الصّفوف، وتُطبَعُ القُبُلاتُ الماسِخة على خُدودِهم، وتُنثرُ البسَمَاتُ الصَّفراءُ في وجوههم، والتي غالبًا ما تنطوي على غِلٍّ دفينٍ ، وحقدٍ في الصدورِ مَكين .».

(١) لَيست هـذه المقطـوعة من المقامات الواردة بالكتاب ، وقد عـوَّلتُ عليها كمثالٍ منعًا للتكرار؛ كي يرى القاريءُ كل مكتوبٍ جديدًا .

وهُو هُنا على قاعدته في النَّسْج، لا يتقيَّدُ بالتكرار الموسيقيِّ بكلِّ عبارتين ، وإنَّما يُفسحُ لنفسهِ مجالاً للانسيابيَّةِ النسبيَّة ، وكأنهُ يُماشي طبيعة الأذواق التِي لا تميلُ كثيرًا إلَى هذا الشكلِ البنائِيِّ ، لأنهُ رُبمَّا يصرفُ عن تأمُّلِ المعنَى .

وبكُلِّ حالٍ ؛ فالمقطوعةُ طويلةٌ ، تُعدُّ عندِي مثالاً حسنًا من أمثلةِ المقاماتِ العصريَّة ، كما أنها تحتاجُ إلَى جلْسَةٍ أطول لمُناقشةِ ظاهرةٍ ناقشها المُبدعُ جاعلاً نفسَهُ محورَ العمَلِ ، فالمُكُوثُ هُنا يحتاجُ إلَى دراسةِ التناصِّ الأصليِّ والتناصِّ الفَرعيِّ ، أي الاشتباكاتِ مع أهل الجنسِ الفنِّيِّ ومع غيرهم من كَتبَةِ الفنُونِ الأُخرَى، ويحتاجُ أيضًا إلَى تناول كلِّ مقاماته بالرؤيةِ السريعةِ لمعرفةِ درجةِ هذا المقامة من التنزيل النفسيِّ والواقعيِّ المُعاشِ، وما سيترتَّبُ على ذلكَ من الحُكْمِ عَلى الأفكار الجوانيَّة والرؤيةِ الفكريَّة .

وهذا مقامٌ يطُول، والجَوْرُ على طُرُوسِ صاحبنَا ليسَ من أمانةِ العقُول، وأنا أعِدُ بالعودةِ إليهِ في غيرِ هذا المقامِ، ولهُ منِّي كُلّ تحيَّةٍ وسلام .

نـاقـد الـجيـل

محمد محمود دحـــروج

عقيب فجـر الثلاثاء

٩ / ١٠ / ٢٠١٨

المَقَامَةُ المَحْكَمِيَّة

حدَّثَنا ابنُ أبي العينين، قال:

أصبحتُ أجرُّ قدميَّ صوب المحكمة، مُغتمًّا قد عافت نفسي صُنوف الأطعمة، أتأبّط حزمة من الأوراق المُلزِمة، وأخرى مكرورة تحاكيها كالمَلزمة، تحوي شهادات ميلاد وأخري للوفاة، مُندفعا قد عدمتُ الرَّوِيَّة والأناة، أتفحَّصُ الملفات والوثائق، وأُنسِّق مابينها من علائق[1]، تتوِّجُها الطوابع والدمغات، وتُذيِّلها الأختام والتوقيعات؛ فقد قصدني أبناء وأمهم لحبيب، لقي ربه فقيرا من قريب؛ لأستخرجَ لهم للوراثة إعلاما، فأُسهِم ـ بذلك ـ في مواساتهم إسهاما، وأُكرِم روحَ صديقي إكراما، فلم يترك لهم الرجل مالا، ولم تكن أوضاعُهم بالأسعد حالا؛ لذا أفْلتْنا من جشع المُحامين، ومُدَّعين أمام المحكمة قابعين، وانطلقنا على الله مُتوكلين، نسألُ هذا ومن ذاك نستبين؛ كي لا نشق على الورثةِ المساكين.

هرولت أنتهب السلالم، مُتناسيا آلامي أقاوم، أقرع على الموظفين المكاتب من مختلف الدرجاتِ والمراتب، فيتقاذفني كبيرهم والصغير؛ المثمِّن والمُصفِّي

(١) علائق: جمع عَلاقة، وهي رابطة تربط بين شخصين أو شيئين.

والخبير، هذا يُسلمُني لذاك، وتلك تشيرُ بأنْ هنااك، ولاأدري ماذا يُطبَخ أويُحاك!

وبينما يعتصرُني الإنهاك، وتنقطعُ أنفاسي من الإهلاك، إذْ بقاعةٍ تخطف مني الأبصار، تُطوِّقها المهابة والوقار، قد شيِّدت بروعة وإبهار، يصدرُ منها جلبةٌ وهَـرْج وشِجار، فسِرتُ أتحسَّسُها جدارا بعد جدار، حتي ولَجتُ من سامقِ الأبواب، مُتلصِّصا كي لا أحظى بعقاب، فاستوقفني الشُّرطي لأبديَ الأسباب: لماذا دخلتَ هكذا خِلسة؟ وهل أنت مُتقاضٍ كي تحضرَ الجلسة؟!

فاستسمحتُه بالبقاء والمُكوث، على أن أكونَ أطوعَ مبعوث، فأنا بحضور الجلسات كَلِفْ[1]، وإن شئتَ أُبدي لك الحَلِف، ولن أُصدرَ صوتًا أو أُثيرَ الشَّغب؛ حتى لا أجلب لك الإحراج والتعب، فاستبقاني الشُّرطِيُّ على مَضضْ، قائلا: تظاهرْ بأن لك طلب وغـرض، وإلا أهانك القاضي ومنك انتقص، وربما يُدرِجك مع الجناة في القفص، وإياك ثم إياك والتصوير! ولتغلقْ هاتفك، وهذا إنذارٌ منّي وتحذير!

فعاهدتُه على السمع والطاعة، جاهدا قدر الاستطاعة.

(١) كَلِف: مُحِبٌّ، كلِف بالأمر: أحبَّه وأُولع به.

وأقبلَ ـ على عجلٍ ـ المحامون، وتكأكأ[1] خلفهم المُختصمون، ونُصِبت سَاحَة المعركة، وسلك كل فريقٍ مسلكَه، ولم تخلُ من ادعاءات وفبركة، وشهادات زور وبهتان بأجر، قد بُيِّت علي أصحابِها بفجر:

فهذا مُحترمٌ رفيعُ القَدْر قد نال منه سفيه بغدر، وتلك ضربت رأسها بحجر، وجاءت تجرْجر ثوبها كالغجر؛ تشكو جارتها لتشأر، وجارتها قُبالَتها تندِب وتجْأر، وهذا أقام في الزراعات البنيان، فغُرِّم الآلاف وأُودع القضبان، وسارق امتدت يده واختلس، وانحرف بعد استقامة وانتكس، وصاحب أملاك بلا حول جلس، ودائنوه يتوعّدونه بعدَ الفَلَس، أكُفٌّ تناجي رب السماء: ارفعْ اللهم عنا الظلم والبلاء، مَدينٌ يبكي بدمع هَتُون[2]؛ قد نالت منه رَيْب المنون[3]، لقد اقترض من البنوك الأموال، ولم يستطع سدادا فسِيق في الحال، أمٌ مكلومةٌ يعتصرُ قلبها؛ مظلوما يقبع في السجن وحيدُها، تتعلقُ أيادٍ بالقضبان؛ لتناجي أهلا فيها وخلان، فلاحٌ متهمٌ بمخالفة في الأرض؛ أيتركها تبور وهي العِرض؟! وعائلتان مزقوا بعضَهم تمزيقًا، وجميعُهم يتَلمَّس من القاضي تصديقا، وهذا قد انتهب أرضَ الجار، وزجّ ـ عُنوةً ـ عليه الحيار [4]، فاصطحبا مُحاميْن والخرائط؛ إذْ لم تُفلح بينهما الوسائط.

---

(١) تكأكأ القوم: تجمَّعُوا وازدحموا

(٢) هَتُون: غزير.

(٣) رَيْبُ الْمَنونِ : حَوادِثُ الدَّهْرِ وَمَصائِبُه.

(٤) الحيار: منار الأرض.

حملق بعينيه ورفع الحواجب، ثم زعق بأعلى صوته الحاجب:

محكـمـــــــــة!

لتبدأَ بعدها الملحمة.

انتظم المُتقاضون على المقاعد، ما بين واقفٍ ومُتَّكئٍ وقاعِد، يحبِسون أنفاسهم متأهبين، وقد جفَّت حلوقهم مترقبين، فدخل القاضي تكسوه المهابة ، يصطحب مستشاريه ونُوَّابَه، مُشتمِلين[1] ببُرَدٍ حريريةٍ سوداء، مُدبَّجة[2] بوشائحَ خضراء.

جذب العامل مقاعدهم للوراء؛ إيذانا بالجلوس والاستواء، وعلى إثره جلس جناحاه والرُّفقاء، فتعالت الأصوات والهمهمات، وارتفعت الأكُفُّ بالدعوات، وخفقت في الصدور القلوب، مُتعلِّقة بعلام الغيوب.

دقَّ القاضي على المِنصة بالمطرقة، واتجهت صوبه الأنظارُ مُحملِقة، ونادى الحاجب على القضية، فانتفضت من سُباتٍ صاحبتُها (فوزيّة) ثائرةَ الشعر ذات سواعدَ فتيَّة، مشمِّرةً عنهما إيذانا بحرب نوويَّه، تسبقها ـ حادَة ـ ألسنتُها الأفْعوانِيّة[3]، يُطوِّق عنقها طفل رضيع، ويجري خلفها من الأطفال

(١) مشتملين: اشتمل الرَّجلُ بثوبه تلفّف به ، أداره على جسده كلِّه حتَّى لا تخرج منه يده.

(٢) مُدبَّجة: مُزيَّنة ومزخرَفة.

(٣) الأفعوانية: الأُفْعُوَانُ : ذكَرُ الأفْعى . والجمع : أفَاعٍ.

قطيع، يصرخون وقد عضَّهم الجوع؛ لعَـوَزِها وجفاف الضروع، فقد قطع عنها طليقها النفقة، وخلا قلبه من الرحمة والشفقة، فأنَّى لها بصُروف الدهر ونوائبه، وتقلبات الزمان وعجائبه، إذْ لاطاقة لها بإطعامهم والكساء، فضلا عن تعليمهم والدواء؛ فها هم يلبسون أسمالا[1] بالية، ترجف أجسادهم وأقدامهم الحافية، تشكو طليقها الجاحد للقاضي، وتحكي سوءاته في الحاضر والماضي، وانبرى طليقُها مُكشِّرا عن أنيابه، يُرغي ويُزبِد يدفع أسبابَه، مُعلِّلا انقطاع النفقة بغيابه؛ فقد كان يعمل باليومية، في مدن القناة بالإسماعيلية، ثم جحظت من الغضبِ عيناه، وتدلَّت من الدهشة شفتاه، وخلع من قدميه خُفَّيْ حمام، وانهال على رأسِها بلا احتشام، والقاضي يحثُّه على الالتزام، وضبط النفس والاحترام، وانبرى ينصحه ويقول، وصاحبنا يزمجِرُ كالغول: لقد كانت زوجتك وبقيت أم العيال، ألا تذكر لها بعضَ أفضال؟! ألم تطعمْك يوما بيديها لقمة؟ ألم تمسح عن قلبك همًّا وغُمَّة؟!

فباغَته طليقُها يقول، والجميعُ أمام القاضي مُثول: أُشهِدُ اللهَ على ما أقول من صراحة؛ لم أرَ منها ـ البتة ـ راحة، فلكم أفزعتني صراخًا وعويلا ونِياحة! وكم اشتكى الجيرانُ من طول لسانها والقباحة، فآثرَتْ جاراتُها السلامة وأخليْن لها الساحة، ولم تكُ تحْسِن الطّهيَ والطبيخ، ولم ترضخ يوما للوم أو توبيخ، حتى ملابسي بيديّ أغسلُها، وخِفتُ أن يزيد حنقي فأقتُلها؛ لذا

(١) أسمالًا: ثيابٌ بالية وقديمة.

طلّقتُها لأخمد نارا تُشعِلُها، أما بُنيَّاتي والصبيان؛ فلهم ماءُ عيني والحنان، وسأُرسلُ نفقاتِهم في الميعاد، وأوافيهم كل شهرٍ بازدياد.

يقولُ ابنُ أبي العينين: ثم أشارَ القاضي ـ مُتعجِّلا ـ للدفاع، فاستعدا للمراوغة والخداع، ونزلا في حلبةِ النزاع، وشمَّرا عن سواعد الجدلِ والإقناع، وشحذا ألسنتَهم حادةً ماضية؛ للفوز بالضربة القاضية، وكلٌّ يحفرُ لأخيه عميق الحُفَـر؛ ليُرديه بلا مناصٍ ولا مفـرّ، ويحظى بالنصر المُبين والظَّفَـر.

ابتدرَ المحاميان يترافعان، يسوقان أوراقهما يتباريان، كديكيْن هنديين يتصارعان، يتشابكان بالأيدي ويتناطحان، يتقدم كلٌّ منهما بأدلّته، مشفوعًا بطلباته ورغبته، ويُبدي دُفوعَه ويدفع بالحُجج؛ ليُغرِق الآخر في قاع اللُّجَج[1].

يقرأ أحدُهم ما بين السطور، كاشفًا الألغاز والمستور، ويُشيح الآخر بيده للقاضي، مُعترضًا على الاستفاضة في الماضي، والقاضي يزجرُه آمِرًا بالسكوت، على أن يتكلم في دوره الموقوت، وبينما يتصنَّع محاميها ويتقعَّر[2]، ثم يبلعُ ريقـه ويتمعَّر[3]، فتضربُه المرأة بكوعها؛ خشيةَ ضَياع النفقة حقها، وإذْ بعَيْطَموس[4] سلَبتْ بسِحْرِها الألباب، تدبّ الأرض مكشّرةً عن

(١) اللجج: جمع لُجَّةٌ وهي: ماء كثير تصطخب أمواجُه.

(٢) يتقعّر: التَّقَعُّرُ في الكَلام: إِخْراجُهُ مِن أَقْصَى الحَلْقِ والتَّعَمُّقُ فِيهِ.

(٣) يتمعَّر: تَمَعَّرَ لونُه أَو وجهُه: تغيَّر وعلَتْه صُفرةٌ.

(٤) عيطموس: العَيْطَمُوس من النساء التامَّة الخلق الجميلة، وقيل: هي الطويلة التَّارَة ذاتُ قوام وأَلواح.

الأنياب؛ محاميةٌ تركلُ بلا إذن كل باب، انبرَت هي الأخرى لتدافع عن المرأة؛ إشفاقًا عليها فأخذتها الجرأة، لما رأت مُحاميها يتصبَّب منه العرق، وانتابَه الفزع من الخصم والفَرَق، فأشارت للمرأة بالشَّناتِر[1]، وقدّمت للقاضي أوراقا ودفاتر، ودوَّى صوتها في ساحة المحكمة وجلْجل، وخصمها يتلوَّى من الغضبِ ويُحَنجِل[2]، وشحب لونه كثمار السَّفَـرْجل[3]، وأصغي لقولِها القاضي وأنصَتْ، وأبْعَدتِ الخِصمَ عن اهتمامِه وأقْصَتْ ، وأخرجَت ما في جُعبتِها وأفْضَت.

وساعتئذٍ هـزَّ القاضي رأسَه، وغرسَ في مُعتَقَده غرسَه، ومال على جناحه الأيسر: بأنْ ينفقَ الرجلُ ولو أعْسَر، وأمْلَى الحكم يدوِّنه المساعد، وأشار بالانصراف إلى المَقاعد، ثم هَذَّب هندامَه واعتدل في الجِلْسَة، وقال: النطقُ بالحُكمِ آخر الجَلْسة، ورُفِعت بعدها الجلسة للاستراحة، وأُخلِيتْ أمام المِنصَّة الساحة، وبعد هنيهات نطق الحاجب كلمته المُلزِمة، صائحًا مرةً أُخرى: محكمة!

---

(١) الشَّناتر: الأَصابع جمع: شُنْتُرَةُ.

(٢) يُحَنْجِلْ: يرقُص.

(٣) السَّفَرْجَلُ : شَجَرَةٌ مِنْ فَصِيلَةِ الوَرْدِيَّاتِ مُثْمِرَةٌ ، لَهَا فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ ، يُعْرَفُ ثَمَرُهَا بِالسَّفَرْجَلِ ، لَوْنُهُ مَائِلٌ إِلَى الصُّفْرَةِ ، صَلْبٌ مُسْتَدِيرٌ ، تُؤْكَلُ نَيِّئَةً وَمَطْبُوخَةً ، كَمَا يُصْنَعُ مِنْهَا الْمُرَبَّى.

وارتفعت الأيدي إلى السماء؛ تنشدُ من الله عـدلَ القضَاء في زمنِ الجَـوْرِ والجفاء. وشرع القاضي ينطق بالحكم، والأذانُ مُصْغيةٌ والأفواهُ بُكْم!

فقال: (ولّما جعلَ اللهُ للرجالِ على النساءِ القَوامَة، وأنزلَ في ذلك قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة، واسْتَحلُّوا بكلمةٍ من الله الفروج، فلا مناصَ عن شرعهِ ولاخروج، وقد أفضي إليها وأفضَت إليه؛ فالحقُّ لها منه وعليه، إذْ هي مَهيضةُ[1] الجناح كسيرة، قليلةُ الحيلة وكانت لديه أسيرة، ينتابُها الآن خوفٌ على أولادها وحيرة، إذ كيف ستطعمهم وتكسوهم، وهي التي من الله ترجوهم؛ لِذا حكمنا لها من آلافِ الجنيهات بعشْرة؛ نفقة تمتعهِ بنضارتِها والعِشْرَة، ثم بألف جنيه نفقةً للصغار، فطأطأ طليقها رأسَه وكساهُ الصَّغار، وأرْدَف القاضي: على أن تسترِد ـ كاملةً ـ قائمتَها، وكلَّ ما دُوِّن فيها لها، وعليه أن يستأجر للأولاد مسكنا؛ لتظل حضانة أمهم لهم موطنا).

عندئذٍ صفق ـ بشدةٍ ـ الحاضرون، وأثنى على الحُكم المحامون، وصاح الجميع عدا النَّذْل: يحيا العدل يحيا العدل، فزعق الطليقُ بأعلى الصوت: أغيثوني ياقوم لقد جاءني الموت! وارتمى على الأرضِ مُمددا، مغشيًا عيه مُجدَّدا، ثم أفاق وانتفض واقفا، وأشارَ إلى طليقته آسفًا، عن كل ما صدرَ منه سالفا، وصاحَ قائلا في وجهها، مُستعطفًا مُتذلِّلا لها: أُشهِدُ الله أنكِ زوجتي، ولقد أرجعتُكِ إلى عصمتي، فعقَّب القاضي ضاحكا: بعدما رأيتَ ليلا حالكا؟! أم إنه مقلبٌ وحيلة؛ لتفرَّ ثم تتركها ذليلة؟!

---

(١) مَهيضة الجناح : واهنة ، ضعيفة ، عاجزة ، لا عون لها.

بيْد أنها منك بانَت وعليك هانت، وقُلت في حقِّها كانت وكانت!

فعليك أن تعقدَ عليها وتمهُرَها من جديد، وتلتمس لها خاتَما ذهبًا لا من حديد، فاغتبط وتقدم يسوقُ الاعتذارات، يستسمحُها لتغفرَ له الزَّلات، لتستُره وتواري السوءات!

عندئذٍ ضحك الأولاد وتسلَّقوا أباهم؛ فما نسُوه يومًا وماقَلاهم، وأطرقَت المرأة في الأرض حياءً، وتلألأ وجهُها نضرةً ورُواءً، ودَقَّ من فرحٍ قلبُها، وتنفَّست الصُّعَدَاءَ من رُوحها، ثم رفعت يديها تشكرُ ربها، وتقاطرت دموعها على وجهها؛ لتُنبت وردا على خدها.

وكُتِب في المحكمةِ كتابُهما، وشهد الجميع على عقدهما؛ لتبدأ حياة جديدة، آملين أن تكون سعيدة.

صفَّق الحضور وتعالَت الزغاريد، والجمْع راضٍ جذلان[1]سعيد، يدعون لهم بالخير والعمر المديد، وبِذا يتم وقفُ وحِفظُ القضيّة؛ لصلحِ طرفيها يحتضنُهم بيتُ الزوجية.

يقول الراوي: ثم نادى الحاجب علي القضية التالية، ودارت رحى المحكمة ثانية، مُستعِرةً تُذكيها[2]جريمةٌ حامية؛ قتلٌ مع سبقِ التعمُّدِ والإصرار، والتَّرَصُّد للمجني عليه في وضَحِ النهار؛ ليظلَّ الصراعُ على

(١) جذلان: فرحانُ سعيد.

(٢) تُذكيها: تُشعلها.

الأرض قائما، مادام الإنسان على سطحِها هائمًا، ثم انبعثَ صوتٌ يشفي العليل، يقول من البحرِ الطويل:

أنخْتُ بسَاحِ العدلِ كلَّ مطيّتي ورحتُ لأروي في البَرايا قضيتي

تُنازعُني رُوحي بكلِّ حكايةٍ وكم ملَّتِ الدنيا بطولِ شِكايتي

ففي كل يومٍ لي اتهامٌ وفِريةٌ تطيرُ بعقلي بعد طولِ بسَالتي

فما كان مني غير صبري مسلِّما لعلي بساحِ الحقِّ أُحيي بطولتي

فلا قاضي الأحكامِ أصدرَ حكمَه ولا الناسُ أرْضوني لتذهبَ عِلّتي

وقد ماتت الشَّكوى بطولِ انتظارِها فمطلٌ وإرجاءٌ وتسويفُ حاجتي

وإن يحكمِ القاضي بحُكمٍ مُثبَتٍ أُنادي بمِلْءِ الفمِ حُلَّت مُصيبتي

فيا قوم ما الداعي لظلمٍ يُضِيرنا وفِي العفـوِ غفرانٌ و تبليغُ جنةِ؟

وعيشوا لدين الله وارجوا ثوابَه ففي ذاك تكريمٌ وفِي تلك راحتي

المَقَـامَـةُ المَدْرَسِـيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

وفي ليلةٍ حالكةٍ غاب عنها القمر، جاءني (محروس) الخفير يقْتفي الأثَـر، يطـرقُ باب الدارِ بكفٍّ كالحجـر، فهرعتُ إليه ـ فزِعًا ـ لأعـرف الخبر، والقلبُ يخفِقُ من دهشةٍ ومن وَجَل، فبادرني ينهَقُ دُونما خجل: ابنكَ مطلوبٌ للشرطة على عجل، فهاتِه أُسْلِمه للباشا كما مني طُلِب، هيا،عجل فحماري منك قد غُلِب!

فقلتُ: لماذا أيها المغْبون[1]الأخْـرق[2]؟ فهز رأسَه غاضبًا ثم أطـرق، تابعتُ قائلا: انطِق، هل اقترفَ ولدي القتل أو سرق؟ أم في مُستنقع الرذيلة[3] قد غـرق؟ بل ربما حاز[4] الحشيشَ والعـرَق[5]!

---

(١) مغبونٌ: خَائِبٌ، لَا مَحْمُودٌ وَلَا مَأْجُور.

(٢) الأخْرَق: الأحمق، الذي لا يُحسن عملَه.

(٣) الرّذيلة : ما كان ساقطًا خسيسًا من الأعمال ، وعكسها: فضيلة

(٤) حَازَ: ضمَّ وامتلك.

(٥) العرق: الخمر.

لا ياسيدي، حاشَاهْ[1]! فأنتم أهلُ الفضلِ والجاه، ولايكن بك عليَّ غضب، سأقرِّب لك المسألة وأقتضِب[2]؛ إنَّما أنا خفيرٌ مأمورْ ولاشأن لي بخفايا الأمور.

لقد انقطع نجلكم عن المدرسة بلا إشْعـار، وهذا إعلانٌ بغيابهِ وإنـذار، وشرع (محروس) يلوي عُنق الحمار، ويهْمِزُه برجليه حتى استدَار، رأتْني ـ مهمومًا ـ أمُّ العيال؛ فبادرَتْني مُتعجِّلةً بالسؤال: لَمَ كلُّ هذا العُبـوس؟ وماذا يريد الخفير محروس؟ فوجهه لا يشي[3] إلا بالنُّحُوس!

فأخبرتُها بما كان بيننا ودار؛ فارتمَت على الأرض بعد دُوَار، ثم غالَبت صدْمتَها وما لاقَت، وقالت بعدما اسْتفاقَت: أين يذهب ولدي كل يوم؟ أجيبوني ـ بالله ـ ياقوم ، يأخذُ مصروفَه منّي على التَّمام، ثم يلهُـو ويلعب ونحن نِيام!

قال ابنُ أبي العينين: سأُباغتُه غدا في المدرسة بالزيارة؛ لأقفَ على الأمر وصحيح العبارة، فيمَّمتُ ـ صباحا ـ شطر الثانوية؛ مدرسةٌ كبيرة عتيقةٌ وأثريَّة، يُغالبُني الحزن والهم، ومابي من ألَمٍ ألَمّ، ولم أكَد أُصَافِح البوابة، حتى طارعقلي وفقدَ صوابَه، ثم هالني مارأيت وياليتني ما أتيت!

---

(١) حَاشَاه: جانَبَهُ فعل ذلك وبعُد عنه.

(٢) أقتضِب: أختصر.

(٣) يشِي: يُنبئ ويُشير.

عـراكًا بين الطلبة وشجار، أصواتا مُزعجةً وسُعار، وتقافُـزا من فوق الأسوار، وشُربًا لغليظ السجائر، ملفوفة مبرومة كالذخائر.

ملابسهم تَلتصق بالأبدان؛ فمنها المُمزَّقُ والمُرقّعُ والمُهان، ولما سألتُهم قهقهوا ومالوا، وعلى بعضهم ترنَّحوا وقالوا: إنها مسايرة العصـر والموضة، مقبولة منكم كانت أومرفوضة، ورأيتُ قصَّاتٍ للشعـر غريبة، وكذا لِحَىً وشواربَ عجيبة، وعند السؤال، أُجِبْت في الحال: هذه لحيةٌ تُركية، وتلك قصةٌ حلزونية، رأيتُهم للاعبي الكرة والممثلين يحاكون، وفي كل وادٍ يشطحون ويهيمون، وفي أيديهم رأيتُ العجبَ العُجاب! إنه السحرُ والخيال يا أحباب؛ أبصرتُ ألواحًا مضيئةً بها يعْبثُون، وبأصابعهم يأمُرونها ويُمَـرِّرون، ويستدعون منها ما يرغبون، وقد استغـرقتهُم تمامًا فلا يشعرون، وسمعتُ كثيرًا من سُبَابٍ وشتائمَ نابية، ومفرداتٍ واصْطلاحاتٍ خاوية، فأعطيتُهم ـ غاضبًا ـ ظهري مُواريًا دهشتي وقهـري، أُلقي نظرةً على الفِناء، أسْتمطِرُ الصبرَ من رب السَّماءْ، فألفيتُ بعض الطلاب يتندَّرون، يُراوغون معلِّميهم ويسخرون، بل و في الطرقات يهربون، وعلى السلالم يصعدون وينزلون، يستعطفهم المشرفون للمثول، والامتثال للأوامر والدخول، ولكن لاحياة لمن تنادي، فمازالوا بين رائح وغادي، فدنوتُ يدفعُني الفضُول؛ لأسألَ عن هدفي المأمول، فتذكَّرتُ مُعلِّمًا هو لي جار، فقلتُ: إنه المُؤتمنُ هنا والمستشار،

لِما يعِنُّ لي من استفسار ، فخُبِّرتُ بأنَّه لاذَ بالفـرار؛ ليتنقلَ من دارٍ إلى دار، وسيعود ليلا إذ لايكفيه النهـار، ففي الخـاص غُنيــةٌ عـن المجموعـات؛ ومظروفٌ واحدٌ يُجْدي عن الـهاتي وهات، حيث الجلسة المريحة والمشروبات، وراحة القلب من بُحِّ الأصوات،ومِن الطلاب مَن يرغب المجموعات، بعد انتهاء الدوام والفترات.

وفصولُ الصف الثالث وجدتُها شاغِـرة، تفتحُ أفواهَها تصْفُر فاغِرة[1]، وأضْحت على عروشها خاوية، تحِن لأيام ـ ما أروعها ـ خالية، فصار يتنازعها في النِّصاب المعلمون، ويرغبها الجُدد والأقدمون، إلى أن ينتهي الأمر بهم فيقتسمون. والزوغانُ سَمْتٌ لِمن عـدم الضمير، كالثعلب يروغ ليُفْلِت ويطير، يرافقه الشبيه والنظير، ثم دخلتُ حجرة المدير، فرمَقني بوجهٍ مُنْبسِطِ الأسارير، وقال مَن؟ قلتُ: ولِيُّ أمرٍ جئتُ أتابع، ولدًا لي في (ثانية رابع) فرحب الرجل وقدم واجب الضيافة، بمنتهى الأدب واللياقة والرهافة، ثم أخذ يشتكى من الافتقار إلى بعض الدفاتر والمُكاتبات، وكذا نفقة الطباعة لأسئلة الامتحانات، وقال: وبجانب العملية التعليمية، نبيع الفيشار والعسلية، فيما يُسمَّى بالوِحدة الإنتاجية؛ كي تُوَرَّد الحصة للإدارة التعليمية! أيعقل كل هذا؟! ولاتسألني كيف ولماذا، ولايخفى عليك تدنِّي الأحوال، وحقيقٌ أن يُتوَّج المعلم مِن كل الأجيال.

(١) فاغرة: فَاتِحَةَ الْفَمِ.

وكذا اشْتَكى الرجلُ من قلة الفصول وارتفاع الكثافة؛ لذا حثّني على التبرع بكياسةٍ وحصافة، فما كان مني إلا أن برمتُ شاربي، ووضعتُ أمامه كل راتبي، بعد أن زجَّ بي في أتون[1] الحـرج؛ فأخذ ماكان بحوزتي حياءً ثم خرج، وأرسل عاملا يطلبني، وإليه على جناح السرعة يصحبُني.

يقول ابن أبي العينين: وكان أنْ رافقني الرجل في جولة إلى الفصول، مرورا بالمكتبة والمعامل ثم حُجرة الفُحُـول، فسمعتُ مُعلّمًا بل شاعرًا يُنشد الأشعار، وظريفًا يسوق طرائف العرب والمُلَح[2] والأخبار، ثم قارئًا للقرآن قد فاق صوته الحُسن والإبهار، وأُخريات تُعدِّدن وجوهًا للإعراب، لجملة قرأْنَها في كتاب، فهزَّني الشوقُ وتسمَّرت قدماي، وجَحَظت من دهشةٍ عيناي، ووقفتُ مُنْتشِيًا لأستزيد، وقلتُ: الله الله.. هل من مزيد؟!

فاغتبط المدير وطال عُنقه، وتنفس الصُّعداء وزال حَنَقُه، ثم قادني إلى الدور التالي، حيث فصول الصف الثاني، فإذْ بمعركةٍ حاميةِ الوطيس، قد صالَ وجالَ فيها إبليس، بين طلاب خالوا أنفسهم فرسانَ الأحلام، لزميلة لهم تُدعَى (ابتسام) ظن كلٌ أنها تُبادله الشوقَ والغـرام، فطرحوا كراريسهم أرضًا والأقلام، وأمسكَ كل منهم بحِزام، قد انتزعَه بغيظٍ من عُـرَى

(١) أتُون: فُرن والجمعُ: أُتُنٌ ، أتَانِينُ.

(٢) المُلَح: جمع المُلْحَة: نُكْتَةُ ، كلمة ظريفة تُرَوِّح عن النَّفس

البِنطال؛ لتكون له الغلبة والمَنال، وانهالوا ضربًا على بعضهم، وتلطخت ثيابُهم بدمائِهم؛ فغضب المدير ونادي بأعلى الصوت: أين الإشْرَاااف؟! لقد شَارَفوا على الموت! فجاءَ الوكيل والمشرفون يلهثون، وتخلّلوا الطلاب يحلّون المشكلةَ ويفضُّون، وتم اصطحاب الجميع للإخصائيين؛ للتحقيق ومعرفة المُذنبين، فاشتد الغيظ لدى المدير، فنفضَ ثيابه وواصلنا المسير، وإذ بطالبٍ يُمْسِكُ معلمًا من خناقِه، وقد انعدم الأدبُ من أخلاقه، يجْبِذُه مُغتاظًا ثم للحائط يُسْلِمُه، فانتزعتُه من براثنه قبل أن يلْكُمه، وكان أن هاج المدير وماج، وانهال عليه بخَيْزُرانةٍ كالكرباج، ثم أرسل في طلب الشرطة؛ ليُنقذوه من هذه الورطة.

وضاعت هَيبة المعلم، الذي يربي ويُعلّم، فيارب سلِّم سلِّم!

يقول الراوي: وسمعتُ معلمًا يرفع عقيرتَه ببيان، وكأنه عضوٌ بالبرلمان، يُراعي ضميره ويُسكت طلابَه ويجعلُ منهم أصدقاءَه وأحبابَه، يسألُ هذا ويُثني على ذاك، يُوقظ الأفهامَ ويُنبِّه الإدراك، وآخرُ قد انتصب السيرك بفصلِه فلايُعرَف أصلُه من فصله، فيه المُكاءُ[1] والطبل والتصدية[2]، والمعلم منهمك في الطبطبة والترضية؛ فيسقط ـ بلاهوادة ـ من نظر الطلاب، ولا يحترمه أحدُهم أو يَهاب، إلى أن انتهى بنا المطاف، وأوشكنا على تحقيق الأهداف؛

(١) المُكاء: صوت الصفير بالفم والأصابع معا.

(٢) التصدية: صوت التصفيق.

ففصل ثانية رابع ليس منا ببعيد، تتعالى منه الأصواتُ بالترديد؛ فمعلمةُ الكيمياء تشرحُ درس الأكاسيد، طرقْنا البابَ نبغي الاستئذان، فسمَحت لنا مُعلمةٌ رَزَان[1]، وطلبتْ من الطلاب الصمتَ والقيام، فشكرتُ لها صنيعها والاحترام، وشرعْتُ أسأل عن الطالب (حُسام) فقالت: هو مُسجّلٌ لديّ في الغياب، فهلا وضحتَ لنا الأسباب؟! فتمنيتُ لوانشقت الأرض وابتلعتني، وتواريتُ بين طيّاتها وما أخرجَتني! فأشار زميلٌ له يقول، فأذِنتْ له المعلمة بالمثول: سأُقرُّ بما رأيتُ بعيني وأعترف: يأتي (حسام) حتى المدرسة ثم ينصرف، يلهو ويلعب ويقترِف مايقترِف، أغْـواه أصدقاءُ السُّوءِ فتخلَّف عن الركبِ واختلف، وقال آخر: إنه على هذه الحال منذ زمن، وها أنت ـ ياسيدي ـ تدفعُ الثمن، فلم تطل يداك بلحَ الشام أوعنبَ اليمن.

خانَتْني قدماي ولم تحملْني، وكادت الحسرةُ أن تقتلَني، فخرجتُ هائمًا أتحسَّس الجدران، أبحث عن ولدي في كل مكان، يحمل الريح صوتي إلى الأفق البعيد: أين أنت أيها الوليييييد؟ أغْذُوك بدمي وأُربيك من جديد، هلم؛ فأمُّكَ المُنهَكة ستصنع لك ماتريد، ألم تدرِ؟ لقد باعت لأجلك عقدَها الفريد!

ألم تَعِدها بتحقيق حلمها الوحيد؛ تطبِّب الآلام وتُبرئ الجراح، بعد إصرار وإرادةٍ وكفاح؟!

(١) رزانٌ: ذاتُ ثبات ووقار وعفاف، رزينة في مجلسها.

يقول ابن أبي العينين: فتحاملتُ على نفسي حتي وصلت إلى الدار، وجلستُ على المصطبةِ وظهري إلى الجدار، والهمُّ في صدري يغلي ويَعْتلِج[1]، والله في عليائه يأذنُ بالفرج، وإذ بالأذان يهدهدني ويشنِّفُ آذاني، والدموع تسحُّ لتغسل ما آذاني، ثم (حسام) يجري ليرتمي بين أحضاني، يُقبِّل رأسي ويديّ وينْتحِب، يسترضي أمه يُقبّلُ رجليها ويصطحب، أملا جديدا يأْتلِق ويَـرْبُو، وعزمًا ماضيًا لايفَل ولايَخْبُـو، وعندها سالت دموع ابنُ أبي العينين، وهو هائمٌ لايدري إلى أين، ثم دعا لـ حسام بالقبول، وأنشأ يعِظُ ويقول:

قل لي بربك ما جرى ... هل صح عندك ما أرى ؟
أم أن عيني أظلمت ... بُؤسًا تعودُ القهقـرى ؟
فشبابُنا قد أعلنـوا ... عهدَ الغوايـةِ أسْفَـرا
جعلوا الغُرابَ إمامَهم ... والخيرُ عنهم أدْبرا
لم يذعِنــوا لمُعلّم ... عرفَ الطريقَ و أبْصَرا
وتحلّقوا حول الذيً ... جعل السَّفاهةَ مظهرا
أين الشبابُ و علمُهم ... فالقدسُ يُسرقُ آخِرا
يا قومُ إني ناصحٌ ... بالحقِ في كل الــورى
عودوا إلى الحقِّ الذي ... يُهدي العقولَ جَواهرا
الدين يهتفُ أمتي ... ما صحَّ أن نتأخـرا
إن الشبابَ عتادُنا ... فاحذر أُخيَّ تدهورا

(١) يعتلج: يضطرب.

المَقَامَةُ الفُولِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

رحم الله زمانًا ولّى وأدْبر، فها قد فنيَ العمر ولم نشعر، رضيَ العمُّ سيّد فيه بالقليل، بل الدُّون، فكل خطْبٍ بعد دينه ثم صحته يهون.

مع الصعب يتلألأ معدنه الأصيل، وتطيب حياتُه كالنسيم العليل؛ فلا الفقر عن العيش يُثنيه، ولا العوَز عن الأمل يُقصيه، يأكل من عمل يده وكدِّه، هوَ هوَ في بُؤسه وسعْده؛ فما أن يفيقَ من نومه المكْدود، ويتقلَّبَ مُتململًا تململُ المهدودْ حتى يقول: (يا فتّاح ياعليم يارزّاق ياكريم) ويُثنِّي ـ كعادته ـ بقوله المعهود: (سترك علينا ياحليم ياودود)، ثم ينتفض فيفرك عينيه براحتيه، ويتمطَّى ويتثاءب، مُتأوِّهًا من الترائب، ثم ينتفضُ واقفًا على الأرض، يترنَّحُ لا يَميز الطول من العرض، يتأَفَّفُ ألمًا وكأن تحت قدميه الجَمْر، يجرُّهما إلى المرحاض كالمدفوع إلى القبر، يقضي حاجته ويغتسِل، وينفضُ آلامه مُدندِنًا فيرتجل، ثم يتوضأُ فيُسبغُ الوضوء، فيذهب عن كاهله مايسوء.

مازال هناك مُتَّسَعٌ لصلاة الصبح ياوَسْنان[1]، يقولُها مُذيعُ إذاعة القرآن، يُصلي ويدعـو اللهَ بادئًا يومَه، تاركًا ـ رغم أنفه ـ لذةَ نومه.

بصوتٍ مُتهدّجٍ[2] تقول أم الأولاد: الشاي على النار في البراد، وعلى الرّيق يصبُّ شايَه ويحتسيه، ثم يرمقُ نظيرَه في المرآةِ فيزْدَريه[3]!

يُصلِحُ من شتاتٍ هِندامَه، ويُؤجل ـ إلى حين ـ أحلامَه، ثم يلتقطُ في عُجالةٍ عُـدَّة العمل، يحْدُوه الشوقُ ويُصبِّره الأمل، للقاء حبيبته وعشرة العمـر، إذ ليس له على فراقها صبر، وما كان ليُفطِر في البيت ويدَعَها وقد مَدَّت من لَهَفٍ بُسُطَها، وازَّيَّنت وأبدَت حسْنَها، وتلألأت حبَّاتُ الطماطم على جيدها، وتدلَّى البصل الأخضر على خصرها، وهي الولهانةُ قد أشهرت مظلة تستظل بها.

يقول ابن أبي العينين: وكعادته احتضن ـ بشوقٍ ـ العمَّ سـيّد عربةَ الفول، والكل بحضرتها وبين يديها مثـول، منتظرًا طلَبَه المأمُـول .

وها هو الريّس «منصور» وقد أجلَسَ أمامه القـدور، بعدما طاب واستطاب المظروف، يلُفَّها بخِـرقـةٍ من الصـوف، ثم يُحكِم الرجل رَصَّ

(١) وسْنَان: نَاعِسٌ، أَي الَّذِي غَلَبَهُ النُّعَاسُ.

(٢) متهدِّج: مُتَكَسِّرٌ: أَيْ مُتَقَطِّعٌ فِي ارْتِعَاشٍ.

(٣) يزْدريه: يحتقره

وترتيبَ البضاعة، ومساعدُه يغسلُ الأطباقَ في خِفة وبراعة، وبِصوته الأجَشّ ينادي ويقـول: (لو خلص الفـول أنا مش مسؤول) ورُوّاد العربة قد اصطفوا حولها، ولم يبق شِـبرٌ قُبالةَ عـرضها وطولها.

تفـوحُ رائحةُ القِدر تغـزو الأُنُوف، والمعدةُ تتأهّبُ والعينُ تطوف، يضرِبُ الرجلُ بكبشته في جوف القِدر؛ فيُخرجُ فولًا كالزُّبد عظيم القـدر، يطوفُ على الأطباق بالفول يملؤها، وبالزيت الحارِ والطحينة يُزخرفها، وبالملح والشطّة يوشِّيها ويدبِّجُها.

وُزِّعت على الزبائن الأطباق ، فسال لُعابُهم لها باشتياق، وكذا أطباق السَّلطة فالطُرشيُّ وحارُّ المياه، فتأهبت الأيدي وأطـرقت الجباه!

العم سيّد: ماهذا الاحتيال والدجل؟! مافائدة صنيعك بلا خبز يارجل؟!

يُطلقُ الريّس "منصور"صَافِـرَة، تَشقُّ الهواء مُجلجلةً كالطائرة، فيأتي يترنَّحُ فوق الدرّاجة صبيّ، وفوق رأسه طاوِلةُ الخُـبز البلديّ، فيُبادرُه الزبائن مُتعجّلين، يتخطَّفون كالطير نَهِمين، وشرعـوا يلتهمون وكأنهم لم يأكلوا، يُجْهِـزون على الجوع ليقتلوا، يطيب لهم الطعام كأنه اللحم، بل أفضل منه ولو شُوِي على الفحم، فأنّى لهم به وقد جاوز المائة؛ وبات مُحرَّمًا على تلك الفِئة!

يحتسون ماءَ الطُرشيّ الحار وكأنه المـرَق، وبرفقٍ يهمِسُ كلٌ بلقمته إلي الطبق، وقد اعتراه الخوفُ وأصابَه الفَـرَق؛ خشيةَ نفادِ نصيبه من الكهرمان ومازال المسكينُ نَهِمًا وجوعان؛ إلى أن تمتلئ المعدة وتشعر بالأمان.

يتأففُ أحدُهم شاهرًا طبقَه، وقد كواه الحارُّ وحرَقَه: زدني (كِمَالة) يافتى وكان بالماءِ المُثَلَّج قد أتى، فناولَه كبشةً على مضض، بغير رضًا منه ولاغرض، مُتعِضًا يُحاكي سيِّـده، في قوله وقد أيَّده: (وأنا مالي الفول غالي) ويقول آخر: (ناولني فَصّ لَمون ياعم منصور، يبارك لك ربنا ويزيد عنيك نور) فناولَه قائلا وهو حزين: يالها من سنين! لقد جاوز الليمون العشرين!

وآخر يقضِم بفمه عُقدتَها، فيكشف ثوبها وسُترتها، ثم بقبضته يدُشُّها، وبالخلِّ يرشُّها قائلا: تفاح الغلابة فما أشهاكَ يابصل! لايُفارق طعامي مهما حصل.

ويقول آخـر وقد أتى على الثلاثة: رغيفٌ واحسبه عليّ زيادة، فما أقسى مهنة الحِـدادة! فطارَ إليه الرغيفُ على جناح السرعة؛ ليُكملَ الرجل به الجـرعة . وآخر تمتدُ يـدُه إلى الطماطم خِلسة، فيرمـقه منصور مُكشِّرًا: ماهذه الخِسَّـة؟! لقد كوتْنا الأسعار بالنار، فلم نعد نهنأُ بعيش ولاقرار!

وآخر يلعَقُ ممتنًّا أصابعَـه، قانعًا بطلبه وقد أشبَعـه.

وحين أُرهِقت الأفواهُ وأُلْهِبت، إذ يتدلّى من السماء سَبَت، وبصوتٍ رقيق خفيض، يقطُر عُذوبةً ويفيض: ضع بخمسة من الفول ثم وضِّب، وبالزيت الحارِ والطّحينة خضِّب.

هيا أيها الفتى بُندق، فهاهو الجرس يدق؛ هاك (ساندويتش) واذهب، أو كُله هنا ولاتغضب، وهاك الماء لتشرب!

يمر شابٌّ ثَمِلٌ يتسكَّع، يَتزيَّا بالچينز المُقطّع، يشيرُ بكفِّه الصغير: هاء هاء يأكلونَ عليق الحمير! فانبرى أحدُ الزبائن، ممشوق القدِّ بائِن: هاء هاء عليق الحمير؟! وماذا يصيبنا أو يضِير؟ إن كنّا نأكلُ طاهرَعليقها، فأنتم تَنْهَسُون[1] نَتِنَ لحمها، أوَمَا صارت الحمير في زماننا هذا تُؤكل؟! فاللهم حبِّبْ إلينا الفول فهو نعم المَأْكل، بعدما التبس علينا الأمرُ وأشْكَل!

يقول الراوي: تلمَّظ[2] العم سيّد وقد تدلَّت شفتاه، وجحظت من أثر الشطّة عيناه، مُقبِّلًا راحةَ يُمْناه وظهرها، شاكرًا الرازَّق على طُهرها قائلًا :

(ربنا يديمها نعمة ويحفظها من الزوال، وارزقنا اللهم الرِّزق الحلال!)، ودسَّ يده في جيبهِ يتَحسَّس، وإذْ بـ لصٍّ يأكلُ حِذاءَه[3] يتجسَّس، يتمسّح به ويتنمَّر، فوكزَه العم سيّد فمرقَ يتذمَّر، ثم ضربَ كفًّا بكف، رافعًا كوزَ الماء ليشْتَف[4] .

كم تريد ياعم منصور لأدفع الحساب؟ عشْرةً من الجنيهات كان الجواب، فمسحَ الرجلُ شِدْقَيه ومَصْمَص شَفتيْه، مُترحّمًا على زمن كان يُفطر فيه بـ جُنيه!

(١) تنهسون: نَهَس اللَّحْمَ : أخذه بمقدَّم أسنانه ونَتَفَه للأكل.

(٢) تلمّظَ: تذوّق الطعام، صوت اللسان عند اللعق.

(٣) حِذاءه: قُبالته، بمحاذاته.

(٤) يشْتَفّ: اشتفّ الماء: شربه كلَّه.

ثُمَّ تأبَّط الرجل عُدَّته وانصرف، يُقـرُّ بالفُحش والغلاء ويعترف، ومضى إلى مآله، يقولُ لسانُ حاله :

اللهم هـوِّن على مصـرَ وأهلها، وبارك فيما تُنبتُ أرضُها مِن: بقْلها وَقثَّائها وفومها وعدسها وبصلها! فما عادوا يستبدلون، وما أصبحَ بوسعهم يأكلون: مَنًّا وسَلوى، ولاعسلا وحلوى، حتى السمك عمَّت بأسعاره البلوى، وأُغْمِضت الأعينُ عن الذي هو خير، وأُجْبرت الأيدي على الأدنى ولاغير!

ومشى العمُّ سيد يقول، منشدًا لصديقه للفول:

بصحنِ الفولِ أطعمُ ما يَطيبُ ... و كل صُنوفِه عندي تطِيبُ

فبعدَ الفجرِ طُعْمةُ كلِّ مَعْـدٍ ... و عند سحُورِنا صِنفٌ حبيبُ

فبالبصلِ المُقَطَّعِ في إدامٍ ... كأن مذاقَه عندي الطبيبُ

يداويني صباحًا أو مساءً ... و يُسعفني إذا جاءَ الغريبُ

ولكن ذاكَ في زمنٍ تولى ... فلا يُجدي البعيدُ ولا القريبُ

فما عادَ اجتماعُ الناسِ صُبحًا ... و قلَّ المالُ و اكتأبَ النسِيبُ

فصحنُ الفولِ صار بسعرِ لحمٍ ... بطعمِ الهمِّ في الزمنِ الكئيبُ

هي الأقدارُ تقضي كلَّ أمرٍ ... و كلُّ نفوسنا جهلا تَعيبُ

المَقَـامَـةُ الحَـريقـيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قـال:

حـلَّ علينا الشتاءُ بأعـاصيره، وعضَّنا ببـردِه وزمهـريره؛ فلاذَ جميعُنا إلى سـريره، نلتحفُ الفُـرُشَ والبطاطين، تصْطكُ أسناننا فلا نكاد نُبين، والزوجةُ فى إلحاحٍ عجيب، تبغي إشعالَ النار قريب، فقلت لها: مالنا والنـار، وماتجلبه من مساوئ وأخطار؟! فهى للهـواء تُفنى وتحرق، وللأرواح تسلبُ وتسرق، ولنا فى الفُـرُشِ عِـوضٌ وغُنية، فلا يكن إشعالُها لكم بُغْية ومُنية.

وكانت الصغرى قد همّت بالذهاب، إلى بيت الجَـدِّ لجلب الأخشاب، بيد أن البردَ قد تقازم لديّ، وخِلتُه حقيرًا فى ناظـريّ، فدفعتُه بماضي بالعزيمة، وأرديتُه بقـويِّ الشكيمة، وألقيتُ عن كاهلي ماينوء، وهممتُ مُبتـدِرًا فى نشاط للوضـوء.

فها هو النهار يلملمُ رداءَه على استحياء؛ ليتعـالى أذانُ المغرب مُعـانِقًا السماء، والقلمُ ـ مُسْبقًا ـ قد خَطَّ أقدارَ العباد، فلا مناص منها ولا استبعاد!

وبينما للوضـوء أستعد فأتشمَّر، لم يُمهلني القدرُ إذْ وقفتُ مشدوهًا أتسمَّر!

يقول ابن أبي العينين: ولم يكن لي علمٌ ـ البتَّة ـ بما يُحاك، أسفل الدرج فى مدخل الدار هناك، فقد رُصَّت فى الركية الأخشاب؛ لتتسبَّب بذلك الأسباب.

وأشعلَتْ سُنبلاتي النارَ على عجل، بلا اكتراثٍ منهن أو وجل، فأخذت النارُ تضعف وتخبو، وأبتْ أن تضطرم وتربو، وكحَّل الدخانُ أعينهنَّ، فسالتْ منه دموعهنَّ، واختنقتْ على إثْره أنفاسُهن، فلجأْن إلى قِنِّينةٍ مُهملةٍ منذ حين، مُحكمةٍ على لترٍ من بنزين، فرغِبتْ ـ جاهلةً ـ إحداهنّ فى الإذْكاء، وعلى عَجَلٍ فتَحَتْ للمارِدِ الغطاء، فعاجَلَت النارُ البنزين، وتعانقا يبُثَّان الشوقَ الدفين، فانفجرَ منهما بركانٌ من اللهب؛ ألسنةٌ أُفعوانيةٌ لها العجب، تكادُ تَمَيَّزُ من الغيْظ والغضب! فألْقَتْ السُّنبُلةُ القِنِّينة فى خوف ورَهَب، واستحال يانعُها إلي الصُّفرةِ والعَطب، وعلا صراخُهنَّ يشقُّ الآفاق، يُدوِّي عاليا إلى السَّبع الطِّباق، فهرعتُ فزعا تاركا الوضوء!

هل مات أحدٌ أم حلَّ بنا مايسوء؟!

وإذ بي قُدَّام بُنيَّاتٍ لجهنم! فهل قامت القيامةُ أم إنّي أتوهَّم؟!

لا لا، بل هنَّ لجهنم بُنيَّات وحفيدات، حقيقةٌ لا أوهامٌ وخيالات!

يقول الراوي: فعزمتُ أمري واستجمعتُ قواي؛ لهول ما رأت من فزع عيناي!

وخِلتُ الأمرَ في بادئه ممكنا، ولم أدرِ مآله المُحزِنا.

وكان أنْ جابهتُها حافيَ القدمين، مرغَمًا أعزلًا مشمّر الساعدين، بهيئة المُتوضِّئ قبل، يُعرقلُ خُطايَ «عمر» الشِّبل، فشرعت تارة أصفعُها بكفيَّ، وأُخرى أركلها بقدميَّ، تُجَنْدلني[1] ثم أقُوم أتَسَكَّع، تلفحني بحرّها فأَتسفَّع[2]!

رب رحماك! هل أدخلتني النار؟! بئس الدار ولاحبّذا القرار! لا لا، إنما هي الدنيا وبلاؤها، قد زال عنك طِيبُها وبهاؤُها، ودونها فائدة أُكابد، فتُطيلُ ألسنتَها تُعانِد!

هكذا كُتِب عنائي في الدنيا الأوابِد[3]، كمَن قطعَ فيها الفيافي والفَدافِد[4]، ثم يعودُ صفرًا خالي الوفاض، فاقضِ بنا يارب ما أنت قاض!

فهذي النارُ تأْبى أن تُخْمدَ أوتُهادِن، ولا يكفُّ عن إِذْكائها السَّادِن[5]!

كالحُوت المقليِّ احترقتْ يمنايَ وساقي، ولاقيتُ ساعتئذٍ ما أُلاقي، كالمُحتضرِ إذا بلغت روحه التراقي!

---

(١) تُجَنْدِلُني: تصرعني، تطرحني أرضا.

(٢) أَتَسَفَّع: أصْطَلي بالنار.

(٣) الأوابد: أوابدُ الدُّنْيا: مصَائِبُهَا ، دَوَاهِيهَا.

(٤) الفَدافِدُ : الأراضي الواسعة المستويةُ لا شيءَ بها.

(٥) السَّادِن: الحارس، الخادم.

يقول الراوي: فصرتُ أحبسُ أنفاسها بالبُسُط والوسَائد، فتلتهمها نهمة من جُلِّ الموائِدْ. يُطفئ جاري غُلّتها بالماء، فتشْرَئِبُّ ويعلو لهيبها الأرجاء! كأخطبوطٍ هي، بل إنها الحرباء؛ تتكيّف وتتلوَّن، ثم تتلوَّى وتتزيَّن، وكأنها مُرسَلةٌ إلى غايةٍ إليها بالغة، وشهيٍّ طعام ترمقه بعينٍ زائغة، مشْفوعَةً بوافرِ الأدلّة الدَّامغة، فمَرامُها الإجْهازُ على الشُّوار[1] لإحدى السُّنبلات والذى رُصَّ بإحكام في إحدى الحجرات، وكان للحجرةِ بَابَان مُلتحِمان، وقفا باستماتةٍ يذُودان، وعلى الحراسة يتناوبَان، فأَتَت النارُ على أحدهما فسقط شهيدًا، وأشْهَدُ أنه ماكان جبانًا أورعديدًا، وبقي الآخرُ يُنافحُ صَلْدا عنيدا، وشُوارُ العروسِ خَلفه ـ مذعورًا ـ يرجُف: واغوثاااااه! من لنا يُسعِف، وعلينا يرِقُّ ويعطِف؟!

وتراءى للزوجة أنْ طالت النارُ الجهاز، فتذكرتْ كيف جمعته من تضييقٍ وإعْواز؛ فصرخَ قلبُها حسرةً وألَمًا، ثم سقطتْ مغشيًّا عليها قهرًا وندمًا!

وعندئذٍ تعالت الأصواتُ والاستغاثات، فتوافدَ الناسُ بالبطاطين والطفايات، وهجموا على النار بِلاهوادة، فخمدُوا أنفاسَها وصارتْ لهم

(١) الشُّوَارُ : جهَاز العروس.

الريادة؛ وهـذا ديْـدَنٌ[1] لقريتي (البـوهـا) وعـادة؛ رجولةٌ وشهـامةٌ أعـزُّ من أحمـرِ الكبريت، ترمُقُهـم في الإطْفـاءِ كـزُرقِ العفاريت، يُلقون بأنفسهم ولايبالـون، ولكم سَعِد بذلكَ الإطفـائيون[2]! فشكرتُ ربي لنجاةِ الأولاد، ثم الشُّـوار، أحمده ـ سبحانه ـ الرحيـم الغفار!

ووقفتُ ـ مسلـوخَ الطَّرفينِ ـ لا أشعرُ بالوجـع، أُمازح الزوجة كي تُفـيقَ من الفـزع: أين كان صـوتكِ ليته خـرج؟! فيُمطـرنا الله بالعون والفــرج!

ولم أنسَ شهْمًا يُدعى: «محمود أبونغـم» فهـو للرجـولة والمـروءة مستـودَعٌ وعلَـم، كافـأَه الله وصبَّ عليه وافر النعـم!

هـذا ماكان من أمْـرِي ذَات مسـاء، وها أنا ذا أتماثـلُ للشفـاء، فالحمـد لله اللطيف في السـرَّاءِ والضـرَّاء، فـلكم عـافانا دهــرًا فمـرحـى بالبـــلَاءْ! وبينما الناس أمامي مثول، أنشأتُ أصبِّرُ نفسي وأقول:

---

(١) دَيْدَن: عادَةٌ ودَأْبٌ

(٢) الإطْفَائِيُّون: جمع الإطفائيّ: رجل مطافئ، جندي من جنود الإطفائيّة ، وهم الذين يواجهون الحرائق. قام الإطفائيّ بإخماد الحريق.

لهيبُ النارِ يحرِقُ في ربُوعي ... و ما يكفي بكائي أودُموعي

وقدشبَّتْبروحي قبل جِسمي ... فأرّقتِ الجَوانبَ في الهُجوعِ

وما تَرَكتْ بداري شَسْعَ نَعلٍ ... و أحرَقتِ الوسائلَ للرُّجوعِ

على صفْحاتِها أوْجَعتُ نفسي ... ورُحتُ أضيءُ في ليلي شموعي

فهبَّت ريحُها من كلِّ صَوْبٍ ... لتُغري من يُقاومُ بالخُضوعِ

فما أبصَرْتُ في الدنيا سبيلا ... سوى الرحمنِ يحفظُ لي دُروعي

فيا ربَّاهُ هبْ لي منك نُورًا ... وهَيِّئ لي طريقي في الرجُوعِ

المَقَامَةُ الحَلَّاقِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

مـرَّ علينا زمانٌ تسيَّد فيه الحلاق، وصار مستشارَ العائلات وحديثَ الأسواق، وذاع صيته وطار في الآفـاق؛ فهو الصيدلانيُّ والطبيبُ ومُعلِّمُ الأخلاق، وخالعُ الأسنان والأضراسِ العِتاق، بل وحكيمُ زمانهِ والمؤتمَنُ على الأعناق، والمُتقدِّمُ في الزواج وفي الطّلاق، وله في الأعياد الحُظوةُ والاشتياق.

أطلقَ الناسُ عليه لقب (المُزَيِّن)، وكان لكلِّ عائلةٍ حلاقٌ مُعيّن، تقرِّبُه وتُدْنيه، تمنحه وتُعطيه، كما أطلَق له الناس العنان، فصار هو من هو يوم الختان؛ يحظى من الأسرة بالنقدية، ويحملُ تحت إبطه البطَّةَ البلديَّة، بعد نَهم في الطَّعام وفي الشراب، ومن الحلوى له ماطاب واستطاب، ويحملُ لأولاده منها في الجِراب!

فها هو حلَّاقُنا العمُّ (حسن): مُفـوَّهٌ مُثقفٌ متكلمٌ لَسِن[1]، فارعُ الطّول ذو وجهٍ منحوت، كأنه الفرعَونُ قد أخرجَ من تابوت، ذو شاربٍ

(١) لَسِنٌ : فَصِيحٌ ، بَلِيغٌ.

أقطع كشَارِب هِتلر، يتسلَّلُ الشعرُ إلى فمه فلا يشعر، يحمل حقيبته الخشبية، تتأرجحُ في يده كأنها الدبلوماسية، تحوي عُـدَّةَ الطبِّ والحلاقة، يُغلِقُ أزرارَ جلبابه حتي الياقة، يرتدي بالطو من الصوف يحكم إغلاقَه، يمشي بين الناس مِشية الطاووس، يختالُ كعريسٍ ذَاهبٍ لعروس، يستوقِفُه بعض الصّبيةِ في الطريقِ بُغْيةَ الحِلاقة، يمتعِضُ زاجرًا إياهم فيرومون فراقَه، إلا واحدًا تسلَّقه وأمسك خناقه، وبينا هو على هذه الحال، إذ تجرَّأَ الصبِيُّ وقال: ألا يعطيك أبي ـ باذخًا ـ المِيسَانية[1]، أم إنك تبتغي معها الأوراق المالية؟! فاستجاب الرجل على مضض، وكأنْ أصَابَه سهمُ المرض، ثم جلس على مصطبةٍ في الشارع، وشمَّر ذراعيه كمن يُصارع، وشرع يرُصُّ مستعرِضًا عُدَّته؛ ماكينتَه الصَّدِئة ثم شفرتَه، يفـردُ ثم ينفضُ فوطتَه؛ مُهترئةً مُتسخةً بلون الأرض، لايُعرفُ طولُها من العرض، وطفقَ يلوي رأسَ الصبي، بيد الغشوم وعقلِ الغبيّ، وبمقصٍ حَديديٍّ يجُـزُّ شعرَه جـزّا، وبشفرَته الثَّلِمَة[2] يحُـزُّ قفاهُ حـزّا، وبين يديه الدمُ يسيل، وكأنه يثأرُ ويشفي الغليل، والصبيُّ يتلوَّى يتأفَّفُ ويجْأر، ويصرخُ تحت يديه ويزأر: آه آه دمٌ ياعمُّ حسن، وبقطعةِ قطنٍ أصابها العفَن، يُجفف ماحيًا للدم الأثر، ويجتهد مُزيلا كي لا يراه البصر.

(١) الميسانية: مقدار معين من المحاصيل الزراعية تُعطى للحلاق كأجرٍ مقابل عمله.

(٢) الثَّلِمة: الغير حادة، ثَلِمَ السِّكِّينُ: كَلَّ حَدُّهُ.

قام الغلامُ يئِنُ من الجِراح، وكأنه أفلتَ من مِبضعِ[1] جرَّاح، ولَّما رأتهُ أمُه طارَ صوابُها، ودقَّت فَزِعةً على صدرها: هل كنتَ ـ يا ولدي ـ في عِراكٍ وشِجَار، أم وقعَ فوق رأسِك جِدار؟!

وكان أن سترَ الفتى رأسَه بشال؛ ليسلمَ من القيل والقال، وسلَّم أمره لله بعدما شوَّهَ الحلاقُ أعلاه.

يقول ابن أبي العينين: ثم يمرُقُ العمُّ حسن بين الحقول؛ ليحلقَ للفلاحين ويَنْصِبَ شِراكَهُ في فُصول، يعبرُ الجداولَ ويجتازُ الزراعات، يزهو ممشوقًا يعتدُّ بالذات، يطعَمُ مع جماعةٍ مَشويَّ الأسماك، ويحتسي الشاي مع أخرى هناك، يحكي أساطيرَ من نسجِ الخيال، وخرافاتٍ لاتنْطلي على العيال؛ كأن قابلَتهُ الجنيَّة وسلَّمت عليه، ووقفت مُذعنةً بين يديه، وطلبتْ منه القربَ بالزواجِ، ووعدتهُ بقصرٍ من ذهبٍ وعَاج؛ فهي تحبهُ مُذْ كانت في بطن الجنيَّة الكبيرة، وتكادُ تنهشُها من إنسيّته الغيرة، وأنه حاربَ اليهود في فلسطين، وأذاقهم الويلات من سنين، وكان يشربُ بالكوزِ السمنَ البلديّ، ويلتهمُ ـ وحده ـ فطيرةً بالدقيقِ القمحيّ، وزعمَ امتلاكه جرّةً من جنيهاتِ الذَّهب، دفنَها الخَواجَةُ ثم ولَّى وذهب، وجدَها في سردابٍ تحت بيته القديم، الذي اشتراه من صاحبه بملاليم، وكم حضرَ حفلاتٍ لأم كلثوم وعبد الوهاب، وكان الأخيرُ له أعزَّ الأصحاب!

(١) المِبْضَعُ: المِشْرَطُ جمع مَباضِعُ: اسم آلة من بضَعَ: مِشْرط ، آلة يُشقّ بها الجلدُ.

فرغَ الرجل من قصصهِ وحكاياته، التي نسجها من أحلامه وخيالاته، وانفضَّ الناسُ من حواليه، فقامَ مُنتصِبًا ينفِضُ بُرْدَيْه[1]، ثم ذهب ليحلِقَ لِندِّه اللّدود، وزبونه الحاج عبد الموجود، فقد دامت بينهما الفِخاخُ والشِّراك، ونالا من بعضهما حتى الإنْهاك، فألفاهُ نائمًا على كَوْمةٍ من سِباخ، أمام الزرائبِ والأكواخ، فربطَ في الشجرة ثوبَه، واختبأ يترقّبُ صوْبَه، والناس يمرّون فيتعجّبون، وهو قد أصابه من الضحكِ الجنون، حتى أقبل أحدُهم ليوقظَه فأفزعه، فكال الشتائمَ للحلاقِ وأوجعه، ثم جرى خلفه يرشقُه بالطوب، تعلو الضحكات شفاهَهم وتأنَسُ القلوب.

أنهى حلاقةَ شعره وذقنه، ثم أمسك مُتوعِّدًا ذقنَه، هرولَ فزلقَ في الرَّوثِ والفَـرْث؛ ليركبَ جرَّارًا آيبًا من الحَرْث، حتى وصل إلى مشارف القرية، وشرع يعدُّ لعبد الموجود الفِرية.

انطلقَ يُنادي في الزوايا والجوامع، مُتصنِّعًا تزرِفُ منه المدامع؛ بأن مات الحاج عبد الموجود، ولا دائم إلا وجه الله المعبود، حيث وقعت عليه في الحقل الزريبة، فتعجبَ الناسُ وعدُّوها غريبة؛ لقد رأيناه من ساعةٍ قريبة!

فانقلبَ أهلُ الرجل إلى الحقل، وقد حارَ أمرُهم وطاشَ منهم العقل، فوجدوا الرجلَ حيًّا يصلي على القَـشّ؛ لقد أوقعَهم الحلاقُ في

(١) بُرْدَيْه: مثنى بُرْد: كساء مُخَطّط أو مُوشًّى يُلتحف به.

الدَّلس[1] والغش، والقريةُ كلها على قدمٍ وساق، تتأهَّبُ لوداع الرجل والفـراق، إذْ أُتِيَ بالنَّعشِ إلى الدار والمغْسَلة، وأُرْسِلَ في طلب الحانوتي ليُغَسِّلَه، ومُدَّت أمام الدار الفُرُشُ والحُصْر، وتوافدَ الناسُ مُنتظرين بلا حصرْ، وأعلنوا الدفنةَ بعد العصر، وإذْ بالأهل يصطحبون عبد الموجود، من الحقل آيبين يُرقِصُهم الفرحُ والسُّعود؛ لأنه على قيد الحياةِ موجود! وعندئذٍ عمَّ الوجومُ وزَال الضَّير، وطارَ مِن على رؤوسهم الطير، ثم تعالت القهقهاتُ وزال العُجاب؛ فقد كانت مكيدةً من الجراب، وما أكثر ألاعيب الحاوي الحلاق، فغدًا يتجرَّعُ من ذاتِ التِّرياق .

ومرَّ زمانٌ يتلوه زمان، وانطلق عبد الموجود يمتطي الأتان[2] ؛ يقصِدُ بعضَ الصَّحبِ والخلان، في القرى المتاخمةِ والنُّجوع، لأقاربِ الحلاق والفروع، وطيَّر هناك خبرَ مَوتِه، وانقطاعَ أنفاسِه من الدنيا وصوته؛ فتكأكأَ القوم لتشييع الجنازة، والكل يعرِف طريقَه فيجتازه، وحطُّوا على محلٍّ قريبهم، تتَّشِحُ بالسوادِ نسَاؤُهم، يسبقهم الصراخُ والعويل؛ فالعمُّ حسن ليس عندهم بالقليل، وإذْ به يعلم بالخبر، فأقبلَ شاهرًا طاقيَّته الوبَر؛ ورأى أصحابَه وأقاربَه ، فاصْطكَّت أسنانُه والتقمَ شَاربَه، ثم كظم غيظه متصنِّعًا الجِد، يفكرُ فيما يُحَاكُ ويُستجَد.

---

(١) الدَّلْسُ: الخديعةُ.

(٢) الأتان : الحِمارة ، أنثى الحمار.

يقول الراوي: وصار الحلَّاق بعد هذا العمر حرضًا[1]، وهو الذي لم ينم قبل ولم يذُق مرضًا، فقد عاشَ بعدها زُهاءَ العشرين بعد نصف قرنٍ من السنين، لا يفتُرُ عن نَصْبِ الحِيل والدُّعابة، إلى أن جاءَه الأجلُ فأجَابَه، ووافتْه ـ على عجَلٍ ـ المَنيَّة، وظلت الحِيلُ والمكائدُ له وفيَّة، فأبت الشائعاتُ إلا أن تلاحقَه، لتُؤنِسَه في قبره وترافقه، وأُدْرِج في نعشِه وشُيعت جنازتُه، لِيلحَقَ بأمِّ العيالِ زوجتِه، وتبعته القريةُ جميعُها إلى المقابِر، ودعاؤهم: ارحم اللهم عبدَك الصابر، ثم قفلَ[2] الناس لبيوتهم واجمين، يذكرون الرجل بالخير مترحمين.

يقول ابن أبي العينين: ثم دوَّى في القريةِ خبرٌ عجيب، تكادُ لهولهِ رؤوس الولدان تشيب: العمُّ حسن حيٌّ في قبره، يلفُّ كفنَه على قُبُله ودُبُره؛ ليخرجَ إلى الدنيا بعد غيبوبة، فقد كان موتُه فِرْيةً وأُكذوبة، وهـرعَ الناسُ بعد سماعِ الخبر؛ ليعاينوا الأمرَ ويتتبَّعوا الأثر، وليروا ما إذا كان حيًّا أومات، فقد خرجوا إلى المقابر زرافات، ليرمقوا الحلاق وقد أبدى الكرامات، فيتوجَّب عليهم بناء المقام ورفع العلامات، فلما وصلوا وأفاقوا من سُبات[3]؛ وجدوا الرجل في عِداد الأموات!

---

(١) حرَضًا: حرَض الشَّيخُ : مرض مرضًا شديدًا أذهب عقله حتّى أشرف على الموت.

(٢) قفلَ: رجع، عاد.

(٣) سُبات: نوم خفيف، أو عميق، راحة وسكون.

أما عبد الموجود فقد عركَه الدهرُ[1] وآلمته الحياة، حتى خبا نورُ حبيبتيهِ والمياه، وما فَتِئ يذكرُ صديقَه الحلاق، ولحِيله كم يحِنُّ ويشتاق!

وعمَّرَ الرجلُ إلى أن ناهـزَ الثمانين، ولقيَ بعدها ربَّه وضَّاءَ الجَبين؛ فقد شرفتُ بتغسيله والتكفين، رحمهما الله كل وقتٍ وحين، فمازالت القريةُ تذكرُهما رغم انصرام السنين.

وخَلَّفَ الراوي الباكِيَ والمُتَباكِي، وهَمَّ يقرِضُ ويُحَاكي:

كان هنا في القـريةِ رجلٌ ... حسنُ الوجهِ مع الأخلاقْ
حسنُ الاسمِ طويلُ الجسمِ ... أمـا العـملُ فهوَ حـلاقْ
وقتُ الطبِّ يصـير طبيبًا ... ذا علـم فـيه وإغراقْ
يعرفُ كيف يداوي جُرحًا ... أو يشْـفى بعد الإحْـرَاقْ
ويُشخِّصُ حالاتَ المرضى ... ذائـعُ صيتٍ في الآفـاقْ
وحـقيبتُه فـي صُـحـبتهِ ... بينهـما وُدٌّ ومِـيثاقْ
كيسُ الحـاوي يحمل فيها ... أدويةً بـعـضُ الأوراقْ
ومِقصًّا صَـدِئت شفْـرَتُـه ... أمْواسًـا سـوداءَ عِـتاقْ
مِنشفةً طـالت عِشـرتُها ... تحـملُ أغْـبارًا أطْـباقْ

(١) عركَهُ الدَّهْرُ: حَنَّكَهُ وأَدَّبَهُ.

كان يجـولُ بحدِّ المَرعَى ... يطـــلبُ رِزقًـا للإنفـــاق
كان يُطوِّفُ شرقًـا غربًـا ... من بعـد طـلوعِ الإشْـرَاقْ
يروي قصصًا نَسْجَ خيالٍ ... صَـــوبَه تتـــجهُ الأحْداقْ
فـــالجِـنيَّة تتـقـــصَّدُهُ ... وتخـافُ عليه الإطْـــرَاقْ
وحكايةُ كـــنزٍ مـخبـوءٍ ... بين ســـراديبِ الأنْـفـــاقْ
يأكـلُ سمكًا يشـربُ شَايًا ... ينهـلُ من كـــلِّ الأطباقْ
ذا يأتيـــهِ وذا يطـــلُـبُهُ ... كـان يُراعي ذَا الإمْـلاقْ

***

يـــومًا كـــانَ من الأيـامِ ... قـــابلَهُ في الصـبحِ غُلامْ
قال له : يا عـــمِّ احلقْ لي ... إنكَ عـــندي كالخـــدَّامْ
وأبي قـــد أعـطاك نقودًا ... تكـــفي عندك حـلقَ العامْ
عجِّل هـيا قُمْ واحـلقْ لي ... لا تـتـــباطـأْ يا مِـقـدامْ
أجْـلَسَهُ جِـلْسةَ مَخْـدُورٍ ... جَـــزَّهُ جَـــزًّا كالأغـــنامِ
فجـرى منه وراحَ ينادي ... سالَ دمي يا قـومُ حـرامْ
هتَفَتْ أمُّ الطـفلِ وقـالتْ ... من حـاولَ قتلكَ يا حسامْ ؟
ضحكَ الطفلُ وقال سريعًا ... ذلكَ حـــــلاقُ الأنْعَـامْ

***

وصـــديقه عـبد الموجودْ ليس له في المَزْحِ حُدودْ
يومًا نـــامَ عـلى خِلـــعتهِ وسْـــطَ طريقهم المَوْرودْ
ربطَ الأول طرفَ الثوبِ في جِذعِ الشجرِ الموجودْ
يضحكُ مـنه مَن يُبصرهُ كـــان لـه يـــومٌ مشـــهـودْ
رجعَ القـــريةَ راح ينادي مات أخـي عبد المـوجـودْ
ســقط عليه السقـفُ ثقيلا رحِـــمَ اللهُ أخـــي المفـــقودْ
ويْحِي كيف سأحـــيا بعدَهْ كان أخي سـندي المعهودْ
جهـَّـزَ كفنًا مـــع مَغْـسلةٍ صـدَّقَـهُ الجمعُ المـوجُـودْ
ذهبوا جمعًا نحو المَرْعَى كي يجـدِوا الرجُـلَ المفقودْ
قـــال لهـــم في كل ثباتٍ مقـلبُ حسنٍ بي مـــردودْ

***

مرتْ أعـــوامٌ وشـــهـــورْ والمـــقـــلبُ كـــنزٌ مغمورْ
طافَ بكل معارفِ حَسَنٍ أخْـــبرَهُم مـــوتُ المشهـورْ
جمعُوا كلَّ الناسِ وراحوا حسنٌ مات ؟ وكـــان النُّورْ
واتَّشحَ النِسـوانُ ســوادًا ناحَـــتْ بالـــمَيْتِ المـذكـــورْ
لما وصلوا أرضَ القريةِ وجـــدوا حَـسَنًا بـدرَ بـدورْ
ضحكَ الكـلُّ وسادَ مُزَاحٌ ملؤوا القـــلبَ هَـــنَا وسرورْ

***

بعد الموتِ أشاعوا خبرًا حسنٌ حيٌّ ودفنّاهُ
يبدو أنَّ الكلَّ تعجَّلْ غُشي عليه وحملناهُ
هيا قوموا نذهبُ هيا هذا ذنبٌ وجنيناهُ
نبني له في البلدِ مقامًا هذا حسنٌ وعلِمناهُ
قال لهم عبدُ الموجودِ هذا كذبٌ ونشرناهُ
أوْحَشني من بعد رحيلٍ مات حبيبي وفقدناهُ

***

ماتَ الكلُّ وبقيتْ ذكرى بين الناسِ لهم ودُعاءْ
نذكرُهم دومًا بالخيرِ يجذبُ ذكرَهم الأضواءْ
أحْسِنْ دومًا تجدْ الحُسنى لا يُفلحُ من فيها أسَاءْ
يرحلُ خيرُ الناس ولكنْ تذكرُهم كلُّ الأشياءْ

المَقَـامَـةُ الرَّشيديَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

ولّما فرغْـنا من العـلام، ورُمنا ماكان فى الأحلام، وحُزْنا كبرى الشهادات، وبلغنا رفيعَ الدرجات، انتظمنا بفتوّةٍ وجدّية؛ لنصْطفَّ فى الجُندية، فما أبهى البِزَّة[1] العسكرية، ودفْـق المشاعرِ الوطنية!

وكان ماكان من عام قضيناه، وجهدٍ بذلناه، ثم دُفِعنا بعدها لمُعتَركِ الحياة، بعدما أُوصِدَتْ خلفنا الأبواب، ونَشِبتْ فى وجوهنا الحِراب، فطفِقنا نأخذُ بالأسباب، ونلتمِسُ الرزقَ من رب الأرباب؛ بيد أنّا لم نجدْ له في مصرَ سبيلا، كثيرًا كان الرزقُ أو قليلا؛ فضاقت علينا الدنيا بما رحبت، وتمازجَت فى أعيننا الألوانُ، بل بَهَتَت.

يقول ابنُ أبي العينين: فمشيتُ أجرُّ من يأسٍ قدميّ، ولا أكادُ أرى بعينيّ، وولجتُ[2] منزلا لبعض الخلان والأقران، مِمَن حوَتْهم قائمةُ النسيان، ودارَ بيننا

(١) البِزَّةُ: الهيئة، الشَّارَة، الزِّيّ.

(٢) ولجتُ: دخلتُ.

نقاشٌ وسِجال، فيما آلت إليه الأحوال، فقال أحدُهم: نَدَعُ قـارةَ الزِّنجِ إلى بلاد الفِـرنج، فهناك اليورو والدولار، وللإنسان عندهم حظوةٌ واعتبار، فرد آخر: ومن أين لنا بالأموال والتأشيرة؟! فما أقساه من روتينٍ وما أغلاها من تسعيرة! فاعتدل ثالثُهم وكان مُتكئًا: أعرف لهذه المُعضلةِ سِمسارًا؛ نُعطيهِ ولاتسألوه استفسَارًا، فقال رابع: وماذا لو كان نصَّابًا ومُحتالا، فبدَّدَ الأحلامَ وابتلع الأموالا؟! فقلتُ: دعْ عنك الرِّيبةَ والخذلان؛ فما أنت هنا بأفضل مكان!

وواصل آخر: هل لى أن أصطحبَ الصغار؟ فقلتُ: لابَأس! ونجعلُهم فى خَبيئةٍ واستِتَار، فلا ندفعُ لهم نَوْلا[1]، إذ لا حولَ لهم ولا طَوْلا، واتفقَ الجميعُ وصرنا وغيرنا كالقطيع؛ نُهاجـرُ من القحطِ إلى الكلأ والربيع.

يقول الراوي: ثم يمَّمنا شطرَ اليَمّ، يعلونا الوجومُ ويعترينا الهمّ ، وإذْ بالأفواجِ على الشاطئ تَتْرى[2]، وكلنا يزعمُ ألّا يُجوع هناك ولايعرَى ..

يلوحُ ـ من بعيدٍ ـ مركبٌ خشبيٌّ مُهترِئ، لم يُبدِ أحدُنا اعتراضًا عليه أو يَجْترِئ، حُملنا إليه زرافاتٍ زَرَافات، وماخَفَّ من متاعٍ وحاجيّات، وقد حُشرنا في جوفه حشرًا؛ ليسعَ المترُ الواحدُ عَشْـرَا، ستمائة فردٍ أويزيد، فاقَت طاقةَ أخشابه والحديد، حتى كاد يلفظنا من جديد، فتشَبَّثَ بعضُنا ببعضٍ كالعناقيد، إذْ لامكانَ بيننا لجبانٍ أو رِعْـدِيد، كلُّ هذا قُبالةَ رشيـد، وانطلقنا

(١) نولًا: النَّوْلُ هو جُعْلُ السَّفينة وأَجْرُها.

(٢) تترى: متتابعون، واحد بعد واحد وبين الجائي وسابقه فترة ومُهلة.

يحدونا الأمل والرجاء، يعتصرُنا الألم ويغالِبنا البكاء، فقد فارَقنا الأهلَ والأحباب، ولاندري متى اللقيا بعد غياب! وسرنا نمخرُ من البحر العُباب؛ فيحنو على الصغارِ منّا الشباب، وإذْ بجبالٍ شاهقاتٍ من الأمواج، عاتياتٍ عالياتٍ كالأبراج، تُحدِقُ بنا من كل جَانب، والله على أمره غالب، فأنشأَتْ المركبُ تارةً تترنَّح، وتارةً تصمدُ وتتبجَّح، ثم عَلَت ساعتئذٍ الأصوات، وبكاءٌ للأطفالِ وهمهمات، واستغفارٌ لربّ الأرضِ والسَّماوات، ولهجَتْ الألسنُ بالذكر والدعاء، فالشكر لله وحسن الثناء، وشخصت الأبصارُ إلى السماء، إلّا أن القدرَ كان الأعجلَ والأسبق، وأبى البحرُ إلا أن يُطبِق، فيفتحُ فَاهُ ثم يُغلِق:

ـــ: آآآآآآه نغرق نغرق، فمن بنا يلحق؟!

ـــ: أَخرجوا الصغَاااار؛ فإعادَ مُستقرٌ لهم أوقرار!

ـــ: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ـــ: علَّ دينٌ، فمَن يَسدُّه، ومن إلى صاحبه يردُّه؟!

ـــ: سامحينى ياأمي، فكم حمَّلتُكِ همِّي!

ـــ: أبي وإخوتي؛ من عليهم سوف يُنفِق، ويصِلُ ثم يحنُو ويُشفِق؟!

ـــ: مازلتُ صغيرًا، لا أريدُ فى البحرِ أن أموت، وينهشَ لحمي القرشُ والحوت!

ـــ: لقد سرقتُ جاري فمن يخبره ليسامح، ويصفح عن المُسيءِ الكالِح!

ـــ: إلهي، سامحني فكم عصيتُك، واقترفتُ الذنبَ وما راقبتُك!

ـــ: يضعُ الصليبَ على القلب، ويقول: فليُسَامِحْنى الرَّب!

ولم يقـوَ المركبُ على صراع الأمواَج، ولم ينفع معه إصلاحٌ أوعلاج؛ فانقلبَ يُعانقُ الأعماقْ، وتبخّرتْ معه الأحلامُ والأشواق.

فهذِى جثثٌ ما أكثرها طافية! قد سُلبت منها النضارةُ والعافية، وهؤلاء صبيةٌ فى الماء يتقلَّبون، فارقوا ذويهم وما عادوا يشعرون!

وتلك أوراقٌ وهُويَّات، وأحذيةٌ وشهادات، وحقائبُ ومُستلزمات! وباتتْ صفحةُ البحرِ كأرضِ معركةٍ حاميةِ الوطِيس، وأُدْرِجتْ كلُّ مُنْتَشَلةٍ[1] فى كيس!

يقول ابن أبي العينين: رحم اللهُ الأحبةَ والرِّفاق، وصبَّرَنا اللطيفُ على مُـرّ الفراق وأحمدُه سبحانه الجليلا؛ فقد نجّاني ونفرًا قليلا، واحتشدَ الناس على الشاطئ يبكون ويتفقّدون، ولايجوبُ البحرَ إلا الأهالي والصيادون، وجاء نِسوةٌ من كلِّ صوبٍ وحدب؛ يلطمْن الخدودَ ويُكثِرْن النَّدْب، ولحِقَهم الرجالُ يخوضون فى الأحجار والرمال، يُفتِّتُ أكبادَهم الحزنُ الدَّفين، ويكسوهم قهرٌ لايلين، وأصبحت أسمى أمانيهم؛ استلامُ جُثثِ أولادِهم وذويهم.

---

(١) مُنْتَشَلَة: المراد: جثةُ الغريق.

يقول الراوي: وأما الناجون؛ فقد أُقْعِـدوا فى صفوف، كأسرى الحربِ مُرغَمي الأُنُوف، وقُـدِّموا للمحاكمات الفورية؛ بتهمةِ الهجرةِ غير الشرعية!

وأُسْدلَ قاتمُ السِّتار، على فصلٍ من الأسى والصَّغَار، يتبعُه فصولٌ وفصول، ولكن تختلفُ الأدْوار، ثم سيقوا في ذهول، ولسانُ حالهم يقول:

إني رحلتُ بُعيْدَ الجِدِّ والنَّصَبِ ... بعد افتقادي بلوغَ العيشِ والطَّلبِ

خَلَّفتُ أمي بلا ذنبٍ أبوحُ به ... وهل بمصرَ سوى الإقلالِ من ذنبِ؟

خلَّفتُ لي صِبيةً و الروحُ تحمِلُهم ... خلَّفتُ أختي، أخي أهملتُ عينَ أبي

إني رَجَوتُ لنا عَيْشًا نطيرُ به ... وقد بنيتُ لهم قصرًا على السُّحبِ

ما كنتُ أدري بأن البحر يلفظُنا ... أو أن موجتَه عمْدًا ستغدِرُ بي

إني رحلتُ ولي بالقلب أمنيةٌ ... لم أقترف زَلّةً أو عشتُ بالكذبِ

قد كنتُ أرجو حياتي في مُهادَنةٍ ... طابَت بحلمي وبعد النومِ لم تَطِبِ

بالله يا بحرُ بلِّغ مَن تركتُهم ... أني قضيتُ بلا جُرمٍ ولا سَبَبِ

المَقَامَةُ السُّكَّرِيَّة

حكى ابنُ أبي العينين، قال:

أطلَّ علينا العام الثامنُ فوق الثلاثين، بعد أربعةَ عشرَ قرنًا من هجرة خاتم النبيين، وقد تتابعَتْ الأحداث والأزمات، وتوالت النَّكباتُ والمُلمّات، وتمنى الناس باطنَ الأرض قبورا، عن ظهرها عيشًا ونُشورا، إذْ أصبح ظهرُها همًّا يُطوِّقُ الرِّقاب، وغمًّا لفراق الأحباب، فقد تراجع خيرُ البلاد، وكثَّر شرُّها في كل نَاد، فأصبحتْ مكسورةَ الجناحِ خاضعة، وأمست لكل مُستغِلٍّ خَانعة[1].

وبينما ينهمِك كلٌ في معايشه ويُفكّر، إذ برزتْ ـ مُكشّرةً ـ أزمةُ السكر، وما أدراكَ ما السكر! فالطعومُ بدونه حقيرة، والحلوقُ بغيره مريرة، فلاضابط لثمنه ولاتسعيرة، فقد قارب العشرةَ إلا قليلا، ولا أمل فى أسعارهِ تنزيلا؛ فاغتمَّ أصحابُ المقاهى والكافيهات، وقرروا رفع أسعار المشروبات، وكذا مصانعُ الحلويات؛ غالوا فى أسعار المنتجات، ولسانُ حالهم يقول: قبَّحَ الله الأزمات!

(١) خانعة: خاضعة.

أما النحّالةُ[1] فهَمُّهم كبير، وخسَارتهم ليس لها نظِير، فأضحوا يدقّونَ كفًّا بكف، ويمصمصون شفاههم ثم أُفٍّ وتُف؛ فكيف يشترون بباهظ الأسعار عظيم الأطنان، ويدفعون أجورا للعمال والغلمان، وللحافلات تتنقلُ فى البلدان، حيث زهور البرتقال والأقطان، ثم يُباع بأبخسِ الأثمان؟! إنه من بالغ الظلم بمكان!

يقول الراوى: حدثنى أحدهم قائلا: قبّحَ اللهُ من كان فى الغلاء سببا، لقد أصبح أمرُنا ـ بحقٍ ـ عجبا؛ من خمسةٍ لعشرة؟! لقد جاوزتُم اللبَّ إلى القشرة! فلْيغذِّ النحل إذن نفسه، وليُطِل فى البحث نفَسَه، ولْيعِشْ منه ما يعيش، فلا أمل يُرجى منه ولا عَيْش، ومن داخل الخلايا سُمعت الشغالاتُ تُرفرف وتُطنطن[2]، إذْ كيف تتركُ آمِنَ الموطِن؛ لتجلب حبوبَ اللقاح والرحيق، فقد أنِستْ الراحةَ من التحليق، حيث السكر مُذابًا فى الأباريق.

أما الأميراتُ والملكات، فمدَدْن أرجلَهنَّ مُتَّكئات، ورفرفنْ بأجنحتهن سعيدات؛ فقد بات غذاؤُهن خليطا مُعتبرًا من الأزهار والأشجار، طبيعيا لاتكتنفُه الأغيار[3]، ثم أُصدِرت فرماناتٌ ملكية، وُصفت بأنها الذكية، من باب شظفِ العيش والتقشُّف، وعدم افتضَاح أمرهم والتكَشُّف:

---

(١) النحّالة: مربو النحل والمشتغلون به.

(٢) تُطنطن: طنطن النّحلُ صوّت أو رنّ مرَّةً بعد أخرى.

(٣) الأغيار: التغييرات والاختلافات.

أولاً: يُطردُ أغلبُ الذكور من الخلايا؛ لخُبث طويَّتهم وسوء النوايا، إذ لاهمَّ لهم إلا التهام الغذاء، دونما عمل أوعناء، ولايبقى إلا القَوى الأمين؛ لتلقيح الملكات من حين إلى حين، ولايأكل فى اليوم إلا مرةً أو مرتين.

ثانيا: ترشيد استهلاك العسل، وختمه بالشمع دونما كسل.

ثالثا: يُحرم غيرُنا ثمار جهدنا؛ بعدما ضنُّوا بتغذيتنا.

رابعا: لتنتشرْ فرقُ الشغالات للحراسة؛ للسْعِ اللصوصِ وتقديمهم للرئاسَة.

هذا، ويُعمل به من اليوم، ومن يزغ[1] فلنفسه فقط كل اللوم!

يقول ابنُ أبي العينين:

أما النملُ فقد كان أسعدَ حظا من النحل؛ فعنده من كل الصُنوف بدائل، فلن يمنع بينه وما يريد حائل، فهذي دُهونٌ وزيوت، وبقايا خُبزٍ تعجُّ بها البيوت، وحشراتٌ حيَّةٌ وأخرى تموت، وحبوبٌ تُفتَّت، فنعم القوت!

وبهذا يضربُ النملُ بأزمة السكر عُرض الحائط، مُحتاطًا بالمخزونِ فى غُرفٍ كالخرائط، ولم يأبَه بها كالإنسان، فبات قرير العين فى أمان.

(١) يزِغ: يمِل، يُخالف.

يقول الراوي: وإذْ بلفيفٍ من المُثبِّطين[1]، والكسالى الخاملين، قد جمعهم مقهى بالحى، لايعرفُ الميتُ منهم من الحىّ، قال أحدهم: الحمد لله؛ فأنا أحب الشاي بدونه، وأكرهُ الحُلوَ بجميع شئونه، وقال ثانيهم: لقد ابتلانى اللهُ بمرض السكري فلاحاجةَ لى بالسكرِ لأشتري، وقال ثالثُهم: أما أنا فأشربُ القهوةَ سادة، ولا أحبها مضبوطة ناهيكَ عن الزيادة، وقال رابعهم: إن فى الفاكهةِ عنه لغُنية، فلتنسوا اسمَه واللقب والكنية.

فقال ابن أبى العينين: عجبتُ لكم يا قوم! أمتيقظون أنتم، أم تغطّون فى النوم؟! أهكذا يكون التبرير للحرمان؟! وماذا عن الأطفال والصبيان، وحُبهم للحلوى كإدمان؟! فرد آخر هازئا: إن فى حرمانهم صيانة لأسنانهم، وراحة لأبدانهم، ونظافة لهندامهم!

فعاجَلهم مُوبِّخًا: تبًّا لكم ثم تب! وكأنكم أحفاد أبى لهب! أين أصواتكم وقد ملأت سالفا الآفاق؟! أم هو الخوَرُ والجُبن والنفاق؟! أترضون العيش بلا سكر؟! ولم يعترض أحدكم أوحتى يفكر؟!

إنها إلفُ العادة وعِشقُ البـلادة!

مرّرَ الله حلوقكم، وصبَّ غضبَه فوقكم، ثم أنشأ يقول:

---

(١) المُثبِّطون: مُثَبِّطٌ لِلْعَزَائِمِ : مُحْبِطُهَا ، مَنْ لاَ يُشَجِّعُ عَلَى القِيَامِ بِشَيْءٍ.

كلامُ الناس عندي لا يسُرُّ وعمري مثلما مروا يمرُّ
أراهم في عذابٍ لا يُوارى و أسألُ عنهم فيشيعُ سِرُّ
ولكن إن نطقتَ بنورِ حقّ سمعتُ بما يسيءُ وما يَضُرُّ
يراه البعضُ مصلحةً وحانت وبعضهُمُو برغمِ الضِّيقِ حُرُّ
ولكن أجمَتْهم نارُ عيْشٍ و أولادٌ و آباءٌ و بِرُّ
ينامُ اللصُّ ملءَ العينِ ليلا له في القومِ منزلةٌ وأمرُ
و حُرُّ القومِ في عيْشٍ مَقيتٍ و يكسوهُ افتقارٌ ثم صَبرُ
وكيف ينامُ في أمنٍ ذليلٌ ؟ وطعمُ الشهدِ في عينيه مرُّ
غدا تحلو الليالي ثم تحلو و عند الله تدبيرٌ و قدْرُ

المَقَامَةُ السُّوقِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

أَفقتُ من نومي ذات صباح على زمجرةٍ وجَلبةٍ وصِياح!

فاستعذتُ بالله العليم الفتاح:

أأُضرِمت حولنا النار، أم قام بين الجيران شجار؟

لا لا.. إنها الزوجةُ وكأنّ أصابها سُعار!

فقلتُ: تبًّا لكِ يا امرأة، ويالَقلبكِ ما أجْرأَه!

بالله ماذا دهاكِ؟! وقد كنتِ البارحة ما أحلاكِ؛ حديثُكِ الدرُّ والهيئةُ كالملاكِ! فما برحتْ أُذنيَّ أصداءُ همسِك، وما غربتْ عني شمسُك وحنانُ لمسِك، أم هو كلام الليل بالزُّبدِ مدهون، أتاه الصباحُ فغاب عن العيون؟!

هل طُردنا من الجنة الغناء، أم أنها الأحلامُ قتلتها الأعباءْ؟!

هدِّئي من روعك ياحوَّاء.

فقالت: أفِـق مِن هـزْلك يارجـل، وانظر مطلبي على عجـل، فماعـاد هنالك حُمـرةٌ لخَجل!

لقد جاوزَتْ الشمسُ الشـروق، ألم تدرِ بأن اليـوم سـوق؟! وأنا حتمًا إليه ذاهبة، مُكرَهَـةٌ زوجتُك لا راغبـة؛ فالثلّاجـةُ على عـروشها خـاوية، فلم الدهشةُ عليكَ بَادية؟! وليس في مطبخنا ما يُطهَى فيُـؤكَل، ولاغـاز للمواقد فنُشعِل!

والصغـارُ على اللحمِ يتهافتون، ولِلَفائفِ المحشيّ يشتاقون، وبـ حبَّاتِ الفاكهة يحلمـون، وسوف أَمـرُّ على بقالة «العم أمين» لجلب حصة الدعـمِ من التموين، إذ نفدَ السكر والزيت، وعانَيتُ من ذلك ماعانيت، وكم دعّمتُ وما أغنيت، فجُد يارب البيتِ بالمال؛ لأكسـوَ بالجديد العيال، عِوضًا عن هذه الأسمال، وشـراء ما ذكـرتُ آنفًا، وما حدَّدتُ لك سالفًا.

فقال الـزوج: كلُّ هذا وأنا نائِـم؟! ياله من يوم غائـم! فكيف سيكون آخره وهذا أوله قاتم؟!

أبِضيقِ ذاتِ يدي تشعُرين؟ لماذا لا تنطِقين؟ لكأني بكِ تقولين: جعجعةٌ ولاطحين! معـذرةً! فكم من الجنيهات تريدين؟ وكم يكفيكِ لما ترغبين؟

قالت: خمسمائة جنيه ربما تكفين، إلا إذا تكرمتَ بالمزيد ياسيدَ العـرين!

يا ألله! أمُتاجـرٌ أنا في الأفيـون، أم حُزتُ مال قـارون؟! هاكِ حافِظتي لاتحوي إلا مئةً وعشرين، وأيامُ الشَّهـر كسلحفاةٍ تمشي في عجين!

يقول ابن أبي العينين: فأعطاها الزوجُ إعطاءَ المُمْتعِض[1]، فتلقَّفتْها هي الأُخـرى على مضض، ومرقَتْ كالسهم تحدثُ نفسَها، وكذا أترابها يفعلن فعلها، وشرعتْ تضربُ أخماسًا في أسداس، تفكـرُ في حاجيّاتها بالقسطاس، مُستعيذةً بالله من الشيطان الخنـاس.

ودخلت الزوجة سـاحة المعمعة؛ صياحًا ودويًّا، جَلَبـةً وقعْقعـة[2]؛ إذ لاشأنَ فيها إلا لِمَن كانَ الجنيهُ مَعَـه.

تسمعُ في السوق أغلظ وأكذبَ الأيمان، وكذا الحلفَ بالطّلاق من النسوان؛ كالكلب يلهثُ إذا تنفس، والشيطان إذا حدَّثَ ووسْوَس!

وامتزجَت الأصواتُ وتداخلتْ، ومابقيتْ بقعةٌ في السوق أو خَلتْ، من مُنادٍ لسلعته، أو مُروِّجٍ لبضاعته:

ــ: طماطمٌ كالتفاااح؛ حقيقـةٌ لامـزاح، الكيلو ونصف بعشرة، لحمٌ ولاقِشـرة.

---

(١) المُمْتعِض: مُغتاظ، صعُب عليه الأمر

(٢) قَعْقَعَـة: حركةٌ مع صوت، صوتُ الأواني والأقداح.

ـــ: أسماكُ البحـر الطازَج؛ فسفورٌ يُحمِي ويُعالج، بخمسةٍ وثلاثين، أقبلـوا مسرعين.

ـــ: بطاااطس؛ ياطُعمةَ الغنيِّ والفقير، لَمن ينام على الحرير والحصير، فقط بسبعة جنيهات، فمَن يقول هاااات؟

ـــ: البصلُ البصل؛ حُلْـوٌ كالعسـل، دواءٌ للأدْواء، نحاربُ الغـلاء، فقط بثمانْ، هيّا ياخِـلَّانْ!

ـــ: اللحمُ البناتيّ؛ بقـرٌ وجَمَسيّ، كالنهـار إذا أصبحْ، والـوردِ إذا تفتَّحْ، ولايُصيبنَّكم الفـزعُ والفَـرَق، فما أشْهاهُ فوق الثّـريدِ وفي المَـرَق! فقط من الجُنيهاتِ بعشرين ومـائة، فإن أزمعتم شراءَه؛ فلْيُرينِّي جمعُكـم مـاءَه!

ـــ: الباذنجاااان؛ أقبل أيها الجوعـان، قبل فوات الأوان؛ طبخةٌ زهيدة سـوادء وبها حديد للإنشاء، تملأ البطن غذاءً وعشـاء، هيا تعالَي يا أسماء!

ـــ: البرتقاالُ واليُوسُفِيّ؛ مصريٌ وصينيّ، كل الفيتامينات، بعشرة جنيهات، أقبلْن ياأمهاات!

ـــ: المَـوْزُ والتُّفااحْ؛ هديةُ الأفراح، للحِسان المـلاح، شفاءٌ للمريض في المساء والصباح.

ـــ: بطٌ ودجاجٌ وحمام، أقبلْ ياهُمام، وأيقظِ الأفهام؛ لتحقق الأحـلام.

ـــ: الخِيارُ والقِثَّااءْ، الكُوسةُ والبازِلّاااءْ، مصريٌّ ياخضاار، وسُحقًا للدولار!

ـــ: تخفيضاتٌ للصغار، وملابسُ للكبار، كوارع ومِنبـار، توابلُ وأعشاب مسْحوقةٌ وأخشاااب، و... ، و...، و...، و....

يقـول ابن أبي العينين: وجَابَت[1] المسكينةُ السـوقَ طولا وعـرضًا، ثم انْطرحتْ كالجدار أرضًا؛ إذْ أصابها الغثيانُ والدوار؛ لباهظ الأثمان وفُحش الأسعـار، واجتمع حولها الناس، وتكاثرتْ عليها الأنفـاس: انهضي يا ابنتي لا بَـاسْ[2]؛ هذا يحاولُ إفاقَتَها، وتلك تُقلِّبُ في خَاصَّتِها، وهؤلاء ذرفـن الدمـوعَ لحالتها، وهي كجذع النخلةِ في الأرض مُمدَّدة، يُقيمونها وقد مدَّ كلٌ يدَه، برفقٍ يبغي المساعدة، فما أن استردتْ وعْيَها، واستقـام عـودُها، ونفضَتْ عن ملابسها التراب ،وتفقَّدت أغراضَها بعد غياب، إذْ وكأنها بالكهرباء صُعقتْ؛ لقد سُرِقتْ سُرِقت سُرقت!! وما رَقَّ لحالها السـوق؛ فلاهي ابْتاعتْ[3] مايروق، ولا اسْتردَّت مالها المسروق، فمَن لها يُعيد الحقـوق؟!

أحسبُها ذهبت مع الريحِ وفي الشقـوق.

---

(١) جابت: قطعت، سارت.

(٢) لا باس، لابأس، لاخوف.

(٣) ابتاعت: اشترت.

وقفلتْ[1] إلى بيتها الخاوي خاضعة، تجرُّ أذيالَ الخيْبةِ والعينُ دامعة، تقدمُ رِجلًا والأُخرى تشدها، والهموم كالجبال على ظهرها، تُثقلُ كاهلها وتهدها. حقيبتها من كل شيء شاغرة، والأفواهُ تنتظرها فاغرة، ولسانُ حالها يقول: اللهم يا مُكوِّرَ الليل على النهار، يامَن رزقتَ الدودَ في الأحجار، اشملْنا بعطفك ياعزيز ياغفار، وسُق لنا رزقًا كالمطر المدرار!

فما إن وصلتْ المكلومةُ إلى الدار، حتى تقافزَ عليها الصغار، يفتِّشون الحقيبةَ والأكياس؛ فلايجدون غيرَ الخَيْبة والإفْلاس، وحانت التفاتةٌ منها لزوجها، ففهمَ مغزاها وما آل إليه حالها؛ فأمسكها ـ مُغتاظًا ـ من تلابيبها، ووَكزَها بقبضته في كتِفها، يُعنِّفها يلومها ويُعاتِب: فلتطْعَمُوا الحجرَ وقد أضعْتِ الراتِب، والدَّيْنُ همٌّ ـ لو تعلمينَ ـ ومذلَّة، وما ثَقُلَ على أحدٍ إلا وأذَلَّه، وأخذ الزوجُ يُزمجِرُ ويُعافِر، وأنشأَ يقولُ من البحر الوافر:

فما للسوقِ يا قومي ومالي ... يُصارِعني لأخسرَ كلَّ مالي
و إن غادَرتُ سِيرتَه بنومٍ ... أفيقُ على التثاؤبِ والسُّعالِ
وما لي حيلةٌ في البُعدِ عنه ... فأشري منه حاجَاتِ العيالِ
فتوقظُني قُبيْل الفجر حتما ... ليسرَحَ شاردًا فكري وبالي

(١) قفلت: رجعت.

فكم ترجو وما في الدار شيءٌ ... و أرجو الله رحمته بحالي
فتصرخُ في ملالٍ لا دلالٍ ... أفِقْ هيا لأحظى بالنَّوَالِ
فكيسُ الأرزِ صارَ كما الثُّريّا ... ورطلُ اللحم مغشُوشٌ وغالي
أمدُّ يدي و تُرجِعُني يميني ... فإن الجيبَ مقطُوعٌ وخَالي
وبعد صُراخِها أنقذتُ نفسي ... وأخرجْتُ الجُنيهَ مع الرِّيالِ
فراحتْ ثم عادتْ في حياءٍ ... فكرّرتِ البكاءَ مع المَقالِ
وقالت لي فداكَ أبي وأمي ... لصوصُ السوقِ أخذوا كلَّ مالي
فقلتُ لها وقد أخرجتُ جيبي ... وداعًا و ارْقُبي ظلَّ الهلالِ
يمينُ اللهِ لو كرَّرتِ هذا ... فإن الردَّ ضَربٌ بالنعَالِ

المَقَامَةُ القطَارِيَّة

حدَّثنا ابْنُ أبي العينين، قال:

و انصرمَ ثلثا عام ألفين وسبعة عشر من الميلاد، وعلى مشارف شهر ذي الحجة عام ألفٍ وأربعمائة وثمانٍ وثلاثين من هجرة خير العباد، أضْنى البلادَ صيفٌ قائظ، يُخرِجُ لسانَه للعباد غائظ، بات الناس من شدةِ الحَرِّ يتأففون، ومن نار الأسعار يكتوون، حيث بهَظَت أسعارُ المحروقات، من البنزين والسولار والمشتقات، وكذا الماء والغاز الكهرباء، والأطعمة والكساء والدَّواء؛ فطارَ صَوابُ الناس ورشدُهم، ولازمَهم همُّهم وغمُّهم، ولطموا الخُدودَ وشقُّوا الجيوب، وضلُّوا سبُلَهم والدروب؛ فما إن أفاقوا من غلاءٍ فَائِت، إلا وتَبِعَه آخرُ صَائت!

وبيْنا أنا على هذه الحال؛ من قالوا وقيل وقال، إذْ هاتَفَني ابنُ عمٍّ لي في الشمال، وبصوتٍ مُتحرِّقٍ شرع يقول: اشتقنا لمصافحةِ مُحَيَّاكم والمثول، فالعمُّ مُغتمٌّ والزوجةُ إلى أُفول!

فهلّا جئتَ على عجلٍ للزيارة، وهذا خبرٌ مني وإشارة؟

نتنظركَ على أحرٍّ من الجمـر، ولْتركبْ الإكسبريس من «ميت غمر» ولايأتِ معك زيدٌ ولاعـمرو.

فأشرتُ على الزوجة بأن تصنعَ الفطير، وتأتي بالجُبن المُعتَّق قليل النظير، ثم يمَّمنا شطرَ الإسكندرية، نستقلُّ قطارَ بورسعيد الأبيَّة بعد لأْيٍ[1] ومَشقة؛ فقد بَعُدت علينا الشُّقَّةُ[2].

يزعقُ مُزمجرًا بوقُ القطار، ويطلقُ العامل صافرةَ الإشعـار؛ لتصبحَ «ميت غمر» منه في إدبار، فتسمعُ جنباتُ قرى المركز صوتَ البـوق، فتصغي له الشوارعُ ومن في السـوق.

يتلوَّى القطارُ أرقطًا[3] كالثعبان، فتئنُّ من تحته صلبُ القضبان، وكأنه الجبلُ جثمَ على صدر الإنسان، فاستحالت عظامُه هشيما فما كان.

جلسَ على المقاعد المُهترئة من جلس، وكان من نصيب الباقي النصَبُ والفَلَس، وقد حُشروا في العربات تختلفُ أضلاعُهم، لاتستقـرُّ على الأرض من الزحام أقدامُهم، وكأنهم إلى المجهول يُساقون، أو إلى حَتْفِهم يُدفعون!

---

(١) لأي: إبطاء وصعوبة، شدة، ضيق.

(٢) الشُّقَّةُ: السَّفَرُ البعيدُ، أو المسافَة يَشُقُّ قطعها.

(٣) أَرْقَطْ: حَيَوَانٌ أَرْقَطُ: جِلْدُهُ مُرَكَّبٌ مِنْ لَوْنَيْنِ، إِمَّا بِهِ بَيَاضٌ تُخَالِطُهُ نُقَطٌ سُودٌ أَوْ عَكْسُ ذَلِكَ. حَيَّةٌ رَقْطَاءُ.

اعتلتْ الحقائبُ والأغراضُ الأرفف، وتمدَّدَ الشبابُ حِذاءَها تحت الأسْقُف، وتشبّثَ كلٌّ بما برزَ فوقه وحولَه، فاقدًا حـوله وطَوْلَه!

يقول الراوي: وكان أن بلغَ مني الجهدُ مبلغه، إذ أتى على جُـلِّ صبري فأفـرَغَه، والزوجة يتصبَّبُ من جبينها العرق، تتشبَّثُ في تلابيبي خشية الغـرق؛ فأمواجُ البشر تهدرُ غاضبة، والأجْبنةُ العابسة مكشِّرةٌ ومُقطِّبة!

إنه السفر قطعةٌ من العذاب، فامْنُن علينا اللهم بالإياب بعد الذهاب!

تناسينا الآلامَ والأوجاع، وسرحتْ أبصارنا والأسماع؛ نرمقُ في المدى خُضرَ الحقول، فلا حدَّ فيها يمنعُ أويحول، بُسُطٌ من سندسٍ قد مُدّت، موصولةٌ ما ضاقت ولا قُـدّت[1].

الفلاحون ذا مُنهمكٌ وذاك ينادي، وهذا أسكتَه الهمُّ والآخر شادي، المعزُ والضأْنُ تعدو وترتع، ومن المروج تأكلُ فتشبع، سنابلُ الأُرزِ بإبداعٍ سُطِّرتْ، وأرزاقُ العباد في اللوحِ قُدِّرتْ، الجداولُ تترقرقُ بالماء النمير، ينسابُ سلْسلًا من فيض الغـدير، فسبحان الخالق البديع القدير!

سوقٌ هي الدنيا قد نُصِب، قليله راحة وكثيرُه النَّصب، لاندرى مَن الخاسرُ فيه ومن الرابح، وفجأة تصرخُ بأعلى صوتها المكابح[2]، فيترنَّحُ الواقِفُ وينكفئُ الجالسْ، ثم ينزل الركابُ ويصعدون وتختلف المجالس.

(١) قُـدَّتْ: انقَطَعتْ.

(٢) المكابح: مِكبَح : كابحة؛ آلة معدَّة لتخفيف سيْر محرِّك أو وقفه، الفرامل.

أسرع القطار ينهبُ الأرضَ نهبا؛ ليجوبَ القُطْرَ شرقًا وغَـربَا.

انفرطَ خلفنا ـ سريعًا ـ عِقـدُ المحطّات: (زفتى)، (السنطة)، فـ (طنطا)، ثم (كفر الزيّات) والبصرُ مُنطلقٌ لايحدُّه حدود، تلوحُ من بعيد (التوفيقية) ثم (إيتاي البارود)، فهوِّن اللهمَّ علينا السفر ياودود!

يطيرُ القطار مُجتازًا الكباري والجسور؛ ليُعلنَ عن قدوم مدينة النور؛ إنها عاصمة البُحيْرةِ دمنهور.

يقفُ القطارُ ليلتقطَ الأنفاس، ثم يمرُق بعدها كالسهم في حماس، فيخترق (أبوحمص) ثم (كفر الدوار)، وهنا أفَقتُ بعد غثيانٍ ودُوار : من ربع قرنٍ من الزمان؛ عُيِّنتُ هنا معلمًا للغة القرآن، في قريةٍ تُدعى (قُومبانية لوقين[1]) مع صحبةٍ هم الوردُ والرياحين، وها هي المدرسة سامقةٌ، فهل تَرين؟ سقاها الله أيامًا يجرفني إليها الحنين!

يقول ابن أبي العينين: يتهادي ـ على مضض ـ القطار، مستجيبًا لأمـر

الانتظار؛ فهنالك نظيرٌ قادمٌ على نفس القضبان، يطوي الأرضَ من قاهرةِ المُعزِّ الآن، ونحن قُبالةَ محطّة (خورشيد)، ومحطة (سيدي جابر) ليست منها ببعيد.

(١) قُومبَانيّة لُوقين: قرية تابعة لمركز كفر الدوار، محافظة البحيرة.

تقول الزوجة وقد اُمْتُقِعَ وجْهُها[1]، ورفَّتْ من خوفٍ عينُها: أشعرُ بانقباض في قلبي، سلِّم سلِّم ياربي!

يأتي النظيرُ مُندفعًا كالريح، يُنذِرُ طويلا ببوقه ويصيح؛ ظنًّا منه أن طريقَه مفتوح، والبحر يضحك له ويلوح، والإسكندرية بأسرارها ستبوح.

قطارُ القاهرة يزعقُ ثم يزعق، والغربانُ فوق قطارنا تنعقُ ثم تنعق!

يا ألله!! القطاران على ذَات الطريق! لطفُك ربي فمن يُطيق؟!

تنطلقُ من الأفواه الشهادات، تُحلِّق عاليًا في السماوات، وانطلقتْ سهامُ الدعوات؛ تستمطرُ من الله الرحمات!

يا ألله!! يصطدمُ ـ بشدّة ـ القطاران، فيسمعُ صوتَها الثَّقَلان[2]، تسقطُ من قطارنا عربتان، ويتجندلُ[3] جرارُ القاهرة، بعدما نالَ منَّا المؤخرة، وكأن صاعقةً نزلتْ من السماء، أو زلزالا ارتجّتْ منه الأرجاء، أو بركانًا انفجرَ في الهواء؛ فتناثرتْ على إثْرِه الدماء ، وتبعثرتْ حولنا الأشلاء!

ودوّى الصراخ في الآفَاق، في مشهدٍ رهيب لايُطاق، فالسماءُ في أعينِ الناجين غامَت، وكأنَّ القيامة قد قامت: دماءٌ خضَّبت قضبان الحديد، كسابقتها في قطار الصعيد.

---

(١) امْتقَعَ وجهُها : تَغَيَّرَ لَوْنُهُ مِنْ حُزْنٍ أو خَوْفٍ أو فَزَعٍ ، أو مَرَضٍ.

(٢) الثَّقَلانِ: الجِنّ والإنس.

(٣) يتجندل: يُطرح أرضًا.

فهذي عـروسٌ تندبُ ـ بحسرةٍ ـ زوجَها، وتلطمُ وردا على خـدها؛ لقد أعدَّ مع البحر مفاجأةً لها، أمٌ تبحث عن صغارها، والرعب يقتلعُ قلبَها، تلك حقائبُ مُزِّقت وأوراق، وهذا وجه غـربَ بعد إشراق، عِناقٌ وبُكاءٌ وفـراق!

واستحالَ المكان إلى ساحةٍ للوغى، بعدما فَاض الدمُ وطغى!

أُنتزِعت الجثثُ من بين الأعواد، أحسبهم ـ عند ربي ـ من الأشهاد؛ فمن فاضتْ أرواحهم كانوا بالعشرات، وعُـدَّ المصابون هنالك بالمئات.

وتلك عرباتُ الإسعاف تتهادي باستخفاف، وكنا قد حملنا الجرحى على الأكتاف، خاب وخسر المُسعِـفون؛ من أفعالهم ألايستحون؟! يلتقطون لذواتهم صورًا ولايبالون؟! فليس القابضُ على الجمر، كمن يدهُ في الماء الغمر!

يقول الراوي: وأحمـدُ الله أن نجاني وزوجتي، ورَدَّ عليّ روحي ومهجتي، فقد كنَّا من القطار في الخاصرة، ولم تُصبنا أقـدارُ المُؤخرة، ويأبى الغـمُّ إلا أن يعقبَه غمّ، فقد خبِّرنا بموت زوجة العـمّ؛ فزادَ البلاءُ وكسانا الهمّ، وشرعنا نجـرُّ من يأسٍ أقدامنا، ونلعـقُ من ألمٍ جـراحنا، نتحسَّسُ سيارةً لنلحقَ بالعـزاء، مُخلِّفين وراءنا ساحةً للفناء، فألهمنا اللهم الصبر حتى اللقاء، ومرقَ يجرُّ للخيبة ذيول، وأنشأ متحسّرًا يقول:

وطني الأصمُّ، أسامعٌ صوتَ الرَّدى ... صوت الهدير مع العويل على المدى؟

هـذا قطـــارُ المـوتِ يقبلُ نحـنَا ... والقهــرُ يُرسـلُ ذلّهُ كي يشهَـدا

أسَمعتَ صوتَ الطفلِ يصرخُ باكيًا ... مي، أفيقـي ثُمّ مـــات مُمَـدّدا ؟

أرأيت شيخًـا كـان شمسَ سعـــادةٍ ... ما ذنبُ هـــذا أن نــراهُ مُـوسَّـدا

أشلاؤُهم تبْكي و تهتفُ: موطِني ... مــاذا جنينا؟ ثم يُخرسُهم صَـــدَى

يا ويْحَ قومِي سلّمُــوا بِمَهانَتِي ... وأنا الذي استبْسَلتُ في وجـهِ العِـدا

أنا لَمْ أصَدِّقْ فيكَ زورَ حديثِهم ... ووهبتُ رُوحي إن يَحِنْ وقتُ الفِدا

باللهِ يـا وطني أجبْني صَادقًـا ... أتُحِبُّنـا ؟ أم أنّ غَـــدْرَك قـد بَدا؟!

المَقَامَةُ الكُوخيَّة

حكى ابنُ أبي العينين، قال :

ولّما ضاقَ بي العيشُ وساءت الأحوال، وكثرَ الهـرْجُ وعمّ الابتذال،

وتنازعتني الهمومُ من عَـوَزٍ وإقلال، وانفضَّ من حولي الصحبُ والخلان بعد تكالبهم على الأرض والبنيان، ونهمهم في المال وحيازته، إذْ شرعـوا في تقديسه وعبادته؛ هِمتُ على وجهي تسبقني دموعي، والهمُّ يعتصرُ قلبي ويمزّقُ ضلوعي؛ أرومُ صديقي نهـر البوهيّة، ألتمسُ ـ بشغفٍ ـ ضِفّته البحرية؛ فما زال على عهدي به وفيًّا، ومذْ صاحبتُه دام لي صفيًّا، فهممْتُ بين يديهِ بالمثول، وجعلت أخاطبه أقول: هل أكون متطفلا إن رُمتُ صحبتَك أيها النهـر؛ أركضُ فارًّا من ضجيجِ الحياة وظلمها والقهـر؟ بعيدًا بعيدًا عن أدرانِ وحماقات البشـر، حيث الأمان في جوارك فلا خوف ولا خطـر، مخلفًا ورائي وجوها كالحة، ونفوسًا خربةً طالحة، أبتْ إلا الجعجعة والجدال، وغضّ الطرف عن حميد الخصال؛ فمسخَت بِقُربهم الحياة، فبئس رفاقًا الجُفـاة! يقول ابن أبي العينين مخاطبًا النهـر، مستاءً من الحمقِ والنَّذالةِ والعُهـر:

هلّا منحتني مترين في مثيلها؟ هما فقط لاغيرهما؛ فوق ضفتك أيها الهمام بين كوبري «البوها» و «سمبو مقام[1]»؛ لأبتنيَ عليها كوخًا من قشٍّ وقصب، وبعض الفروع من الخشب، إذ لاصخب لديك ولانصب، قدّامَ النخلة العجـوز، التي كنا لتمرها نحُوز، هاهي قد انحني عـودها، ونحلَ قحفُها، وذبلتْ عراجينها، وتدلَّي من يبَسٍ جريدها، بجوار الصفصافة التي تتراقص منها الأوراق، فترفّ وتهفـو باشتياق؛ لتلتمعَ وجَناتُها بالنَّضرةِ والبهاء، كفتاةٍ خَجْلَى قد استرقتْ خلوةً في المساء؛ فألقتْ بشعرها المنسدلِ ليسبح فوق موجكَ على استحياء، هنالك قبالة شجرة الكافور العتيقة؛ الأمُّ كانت هي والأُختُ والصديقة، فما زال لحاؤُها سجلًا مفعمًا بذكرياتنا، ومازالت القلوبُ المنقوشةُ عليها تنبِضُ بحبنا، رغم نفاذ سهام الحب فيها، وأبدًا أبدًا لم تُدميها!

نعم، فوق ذلك النجيل النديّ الأخضر، كم تمرّغنا عليه فنسينا أنفسنا ولم نشعر، والتنهيدُ يتصاعدُ إلى السماء فيتبخّر؛ ليحلَّ في الصدور بردٌ وسكينةٌ من جديد، فينشرحُ الصـدر ويأنسُ الوحيد!

أصطحبُ معي قليل زادي، وبعض أغراضي وعتادي: مصحفي، قلمي أوراقي، والمنتخب من الكتب، وبعضَ الخبز الجاف فلا يُصيبُه العطب، وشيئًا

(١) البوها، سمبو مقام: قريتان متجاورتان تابعتان لمركز ميت غمر، محافظة الدقهلية.

من الملح المحوَّج بأسودِ الفُلفُل، والسكر والشاي وحبَّاتِ القـرنفل، و مِن جـرَّة المِشِّ تتفتّق، قطعتين من الجُبن المُعَتَّق، مع قرون الشطةِ الحمراء المخلّلة، والقُلة الفخاريةِ بخيشتها المُبلَّلة، ومِسْرَجتي[1] والسنَّارة ثم الدرَّاجَة، وليس لي بعد ذلك مأربٌ ولاحَاجة.

أستلقي على ظهري في رحابِك الفسيح؛ لتطبِّبَ بدني المُعنَّى[2] وقلبي الجريح، لا يحد بصري إلا صفحةُ السماء الزرقاء، والمروجُ الفسيحةُ الخضراء، يفوح الأريجُ من الزهور تسبقُ الإثمار؛ فيضوع العبقُ في الليلِ والنهار، تلامسُ قدماي ماءكَ الفُرات، ينسابُ سَلْسَلًا فيُحيي الموات، تُوضِّئُني بمائك فوق الأحجار، محكمة رُصّت في الجسر بإبهار، أُصلي أمام الكوخِ للهِ الخالق البديع، تعالى المنعِم ونعم الصنيع!

يقول الراوي: ولقد عهدتُك ـ أيها النهـر ـ كريمًا، لا ضنينًا أو لئيمًا؛ أصطادُ الأسماكَ بسنَّارتي من جوفك، تأْنسُ بي فيزول خوفك، تبوحُ لي ولك أبوح، أقرأُكَ ككتابٍ مفتوح، تمنحني الصبرَ والأناة، كما جُدتَ لأجدادي الأُباة، أُضرمُ النار في جاف الجـريد، فتشتعل ثم تربو وتزيد، أُلقي بالأسماك فيها

(١) مسرجتي: المِسْرَجَة : ما يوضَعُ فيها الفتيلةُ والدُّهْن للإضاءة.

(٢) المُعنَّى: مُعَنَّى القَلْبِ والجَسَدِ : مُعَذَّبٌ

فتتقلَّب، وتتلوَّى من الجمر وتتصلّب! ياويحي، إنها مازالت حية! عفوكَ اللهمَّ؛ فإنما العمل بالنيّة! هاهي تتقافـزُ هاربةً من النار! فقنا اللهم حرَّها ياغفار! تضربُ النارَ الأسماكُ أذيالُها، إلى أن تهدأَ ثورتُها وتفقدَ آمالَها، تستسلم وتنفرج خياشيمها، ثم يسيحُ وَدكُها[1] وتفوحُ رائحتها، فيسيل على إثْرها اللعاب، وتنشغلُ بطيب مذاقها الألباب!

أُقمِّـرُ الخبز على النار فيحمرّ ويُحمّص؛ ليتشبّه بالفطير ويتقمَّص، أُوشي[2] الأسماك بالملحِ والليمون؛ فيُسرُّ برؤيته الناظرون، ألتقطُ القليل من يانع الجرجير؛ ليكتمل بذلك التحضير، تفوحُ رائحة الجُبنِ المعتَّق كالفسيخ، ولْتضرَبْ بعُرضِ الحَائطِ لحومٌ على السِّيـخْ!

الله الله .. ماأشهاهُ من مَأكول، وما أطيبه من مأمول! طعمٌ لاصنـوَ[3] له لذيذ؛ ذلكم اللحمُ الحنيذ[4]!

اللهم لك الحمد أن أغنيتَنى عن عبادك، وأسبغتَ علىّ وافـرَ آلائك!

---

(١) وَدَكُها: الوَدَكُ: دَسَمُ اللَّحْم وَدُهْنُهُ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ.

(٢) أوشّي، أُزخرِفُ، أُحسِّنُ، أُنمِّق.

(٣) صِنو: الصَّنْوُ: النَّظِيرُ والمِثْلُ.

(٤) الحنيذ: المشوِيّ.

أشربُ ماءً فُراتًا كالسكر المذاب، يتحدّرُ إلى حلقي كشهدِ الرُّضَاب[1]، مِن قُلّتي الفخاريّة المُعلَّقة بغصنِ الصفصافة، وشغالاتُ النحلِ تطِنُّ حولها طَـوَّافة!

يا أللهُ! إنها الجنة الغناء؛ ماءٌ وهـواء ، سحبٌ وسماء، خصبٌ ونماء، جمالٌ وبهاء، يانعٌ وفضاء، وعُزلةٌ عمَّن كنت أحسبُهم أصدقاء!

الفلاحُون يسوقون مواشيهم بطانًا آيبين، وقد أَلقـوا بأجسادهم المُنهكة مترنحين، فوق عَرباتهم الخشبية المحملة بالأغـراض، راضين قانعين بلا جحودٍ أو امتعاض، قرصُ الشمس يلوِّحُ مودِّعًا إيذانًا بالغـروب؛ فيَشردُ الذهنُ وتنقبضُ القلوب، ثم تكتسي السماءُ خلفه بأحمـر الشفـق؛ ليستعد الليل بالغَبَشِ[2] والغَسَق[3].

يتسلّلُ الليل خلسةً فيبسط على الكون رداءه، والنجومُ زاهراتٌ ترصِّع بإبداعٍ سماءَه، تسابيحُ تسبحُ حولي لا أَعيها، وتراتيلُ بيِّناتٌ لا أُخْفِيها فـ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[4] ألهمه اللهُ وجادت به القـريحة، تعزفُ الطيورُ ألحانها الشجية، مُترنّمة وبأعشاشها حفيّة، فتحتضِنُ ـ بلهفةٍ ـ فراخها، وتبثها حنينَها ودفئَها، أُضيءُ الكوخ بمسرجتي، وأستلقي برهَـةً لتنشطَ ذاكـرتي، يعمُّ جنباتِه

(١) الرُّضَابُ: قِطَعُ السُّكَّر، رَغْوَةُ العسل، فُتات المسك.

(٢) الغبَش: الغَبَشُ : بقيةُ الليل وظلمةُ آخره، شِدَّةُ الظُّلْمَةِ وَسَوَادُهَا.

(٣) الغَسَقُ: ظلمةُ الليل.

(٤) سورة النور، الآية ٤١

الدفءُ والأُنس والنور، فتحقُرُ في عينيَّ شاهقُ الدُّورِ ومُنيفُ القصور. القمرُ بدرٌ يتلألأُ في السماء، يُسرف في إرسال ضوئه في المساء؛ ليغلّفَ الكون بغِلالةٍ[1] من فضّة، تنثالُ تتْـرَى سابغـةً غير مُنْفضّة، فسبحان البديعِ ما أعظمَه، وما أكرمَه وما أحلمَه!

يقول ابن أبي العينين: قصيرةٌ هي اللحظاتُ الجميلة، كحُلم يانعٍ فوق الخميلة! فها هي سعادتي لاتطـول، إذْ سُرعانَ ما أصابها الذبول؛ فالشمسُ تشرقُ على النهر مكشِّرًا عن أنيابه، وقد أرغَى وأزْبد لروَّادِه وأحبابِه، يزأرُ مزمجرًا كالهَصُورْ[2]، فيفـور طميُه ويثور؛ فهنالك كـرَّاكةٌ آتيةٌ من بعيـد، ترْتَجُّ الأرض من خطْوِها الوئيد، تُهيلُ الجسور وتُفـزعُ الأسماكْ، وتُنهكُ قُـوَى النهر أيّما إنهاك، تعكّـرُ صفـوَ الماء النّمير، وتمحو من صفحته أنغـامَ الخـرير، تُطيحُ بالأشجار الهاجعة، فكأنّما قد وقَعت الواقعة!

انتفضتْ فـزعةً من أعشاشها الطيـور، وسبحتْ الهوامُ خارجةً من الجحور؛ تتساقطُ في المياه الزَّغَبُ[3] والفـراخ؛ فيعلو النّعيبُ[4] ويرتفعُ الصُّراخ!

---

(١) غلالة: ثوبٌ رقيق يشفّ ما تحته.

(٢) الهَصُور : الأسد لأنَّه يهصِر فريسته؛ أي يفترسها ويكسِّرُها، والجمع: هَواصِرَ.

(٣) الزَّغَبُ: صَغارُ الريش والشَّعْر وليِّنُه.

(٤) النَّعِيبُ: صوت صياح الغُراب

ولم يكن كوخي بمنأي عن الهلاك، فقد نُصِبتْ له المكائدُ والشِّراك[1]، إذْ سحقته الكـرّاكةُ ـ شُلَّت ذراعُها ـ بكفِّها كلقمةٍ سائغةٍ تَحلو لها، وأجْهـزتْ بالطين علي أنفـاسه، وأتتْ على كل أحـراسه؛ فاندرستْ ـ تحت الطين ـ معالمُه، وطُمِرت ـ بلا رَحمةٍ ـ ملامحه ، فلاتكاد تسمعُ له الهمس، وكأَن لم يغْنَ[2] بالأمس!

فانطرحتُ مُسلِمًا ظهري لجذعِ نخلة بالية، كانت بالأمس سامقة عالية، وأرَحتُ رأسي المثقلة بالهموم إلى راحتي، بعدما ذبل مقصدي وتلاشتْ غايتي، وشرعتْ ترمقُ عيناي الكـوخ، وكيف تهاوَى بعد شُمـوخ، يبكيه قلبي بعد أُفُـول، ولسانُ حالي يقول: وذهبَتْ أحلامي الصغيرة سُدَىً تحت الجنازير، وتلاشتْ مع الريح آمالي وكوخي الأثيـر، ورجعتُ صفـر اليدين لذيّاكَ المصير!

ولكن لا، لن أموت ولن أعود، وسأجمعُ القشَّ عُـودًا بعد عـود؛ لأُقيمَ الكوخَ ولو حلَّتْ جحافـلُ أوحشود، فلستُ أقلَّ من أسرابِ العصافير؛ فمابرحتْ تُحلِّقُ فوق رأسي وتطير، تنسجُ أعشاشها بعـزم لايحيد؛ فلربَّما يأتي الزمنُ السعيد، فننعمُ ـ حتمًا ـ بالعيْشِ الرغيـد؛ لذا سأبني كوخي من جديد، سأبني كوخي من جديد، ولوكبَّلوني بأغلال الحديد:

---

(١) الشِّراك جمع الشَّرَك : حَبَائِلَ الصَّيْدِ ، المِصْيَدَةَ ، الكَمِينَ.

(٢) يغْنَ: يمكث، يقوم.

فالأرضُ أرضي والبحارُ بِحاري حتى الطُّيورُ بجـوِّها أطياري
لكنّ لي حُلمًا أقضَّ مضاجعي وأذلّ روحي قسوةُ الإعْصَارِ
لملمتُ كلَّ حقائبي في دَفتري و تركتُ قهرًا صُحبتي ودِياري
وجعلتُ نهرَ النيلِ خيرَ مُرافقٍ و جعلتُ منهُ خِزانَةَ الأسْرارِ
أشكو له تحتَ الدموعِ مَهانّتي والقلبُ ينزفُ ظلمةَ الأسْـــوَارِ
فأبى الطغـاةُ العابِشــون حياتَنا وتعمـدوا قهــري بكلِّ نَهَـــارِ
قد زيَّفوا التاريخ فِي أحلامِنا والعُهــرُ أصبحَ سِلعة التُّجَّـــارِ
صارتْ دموعُ النَّهرِ نزْفًا جاريًا والصيدُ عـادَى طُعْمَةَ السِّنَّـارِ
لكنني سـأعــودُ رغمَ ظـلامِـهم لأعيدَ نــورَ الفجـرِ بالأمطَــارِ
وسنُسْكِنُ الأطيارَ في أفنانِنا والشمسُ ترسلُ نــورَهاللسَّــاري
الأرضُ أرضي يا طغاةُ فأبْشِرُوا إنّي علِمتُ خلاصَها بقراري
سنعـودُ نبني المجـدَ في أوطاننا إنّ القــرارَ مَعِيشةُ الأحْـــرارِ

المقَامَةُ النَظَّارِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

سقاها الله بالعـزِّ أيامًا خالية، وأنبتها بعد جدبٍ أحلامًا سامية؛ كنا نتمتعُ فيها بكاملِ الصحةِ وموفورِالعافية، ونمرحُ بملاعبَ للصِّبا فِساحٍ زاهية، وحدائقَ غنّاءَ قطوفُها دانية، كانت أبصارُنا فيها حادةً قاطعة، فنحملقُ ظهرًا فى شمسٍ ساطعَة، ولكن تبدّلت الأحوالُ وتغيّرت، وتلاطمت علينا العِللُ وعَيّرت، فبخِلت الأحداقُ بضوئها وأجدبت، وخبا بعد حِدّةٍ نورُ العيون، وتكالبتْ علينا رَيْبُ المَنون، وصرنا نقتفى الآثارَ ونتلمَّس، ونستجدي الأشياءَ ونتحسَّس، فالليلُ عندى ماأقساهُ إذا عَسْعَس[1]، وقراءتى فيه كالمُحدِّثِ إذا دَلَّس[2].

يقول الراوي: فهرعتُ إلى النظّارات؛ ألتمسُ فيها الراحةَ من الأزمات، والنورَ من الظلمات، غير أننى ضِقتُ بها ذرعًا، ومللتُها أصلًا وفرعًا؛ فما إن أهتدى لواحدة – فأُدنيها وأُقربُها، وأُدلِّلها وأُحبِّذُها، وأُلْبسُها وثيرَ الثياب، ثم

(١) عسعس: عَسْعَسَ اللَّيْلُ : أظلمَ ، أقبلَ بظلامه.

(٢) دلّس: دَلَّسَ الْمُحَدِّثُ في الإسْنادِ: أَتَى في حَديثِهِ بِغَيْرِ الثَّابِتِ الْمَتِين.

فاخرَ الجراب، ولم لا ؟! فهي عيناي بعد عينيَّ ، إذْ تُجلي من رمدٍ ناظريّ ، وتُقوّي من ضَعفٍ حبيبتيّ ، فبها تنتظمُ السُّطُور، وأقرأ في انسجامٍ وحُبور، - إلّا وترتطمُ في البلاطِ فتتكسَّر، فأرمقُها بنظرةِ البائس المُتحسِّر، وتعتريني الدهشةُ ويلبسني الهـمّ، ويُعاودني الحزنُ ويكسوني الغـمّ! فلم أعُد بمقدوري أن أخُطَّ الحرف، أو أضعَ المظروفَ في الظرف، وقد حُزتُ بالكتابة الشَّرف؛ وكذا المفاخرَ كلَّها والتّرف، فصار يتقازمُ أمامي الكبير، ويختفي بالكليّة الصغير، بعدما كنت أرمقُ في النواة النّقير، وسخِرت مُرتعشةً مني السطورُ والصفحات، وتلاشت بل طُمست للترقيم علامات!

فضاقت علىَّ الأرضُ بما رَحُبت، وتمازجت في نظرى الألوانُ بل بَهتت!

فقلتُ: تبًّا لكِ من شوّافةٍ للقراءة! لقد أسأتِ إلىّ أيّما إساءة! أتحسّسُ السطورَ فتغازلني متراقصة، وأكتبُ فتتداخل الحروف متناقصة؛ بعضها طافٍ وأخرى غائصة! فالتمستُ من النظّارات أُخرى؛ ليست بالصغرى ولا بالكبرى، زجاجُها أبيضُ شفاف، يفوقُ رؤيتي بأضعاف، فكان ماكان من أُختها، فبجّحْتُها وأعْليتُ من شأنها، واتخذتُ لها ما كان لسابقتها، ولكنها غازلتنى، بل عاجلتنى بالفقدان، فأمسيتُ كسيرَ الفؤاد حيران، لايستطيبُ فمى طعاما، ولايستطيعُ لسانى كلاما، وثُرتُ صائحًا مغتاظا أوقظُ النِّيامَا: جِدُوا ضَالّتي وإلا صِرتموا حُطامَا!

ثم أطفأتُ غضبي بالوضوء، وصليت ركعتين بسكينةٍ وهدوء، وإذْ بكاهِلي يزول عنه ماينوء، فأرسلَ الله لى خيرًا وأىّ خيْـر! شاعـرا يُدعى: (مُحمد خَيْر) جيّاش العواطف متدفق المشاعـر، يتنفسُ الشعـرَ ويلينُ لقوله كلُّ واعـرٍ، يهوَى ـ بشغفٍ ـ النظارات، كأنهنّ لصغيرتهِ شقيقات، يرسمُ باليراعِ الكلمات، فتُزهرُ الأخيلةُ وتُثمـرُ العبارات، ولاعجب فهو لدارِ العِـزِّ سليل، إذْ باتَ مَن يحذِق الضادَ قليل، فكتب يوما: (نظَّاراتي عِشقُ حياتي، فمَن يشاركني هواياتي؟) فمازحتُه خاطبًا وُدَّ إحداهُنّ،

فقلتُ: أبغى شنبرًا للقراءة، كبيرًا مَتينًا يَشِى بالوضاءة، إذ كُسِر منى اثنان، كُفيتَ الإساءة، ومُنِحتَ من الهمِّ البراءة ، فبادرنى بالجود والكـرم – أكثر اللهُ عليه النعم – قائلا: فلْترسلْ لي كشفًا بالمقاس، وأنا أتولَّى المسالةَ مِن الأساس، وصورةً لمُحيّاك مُنتقاة، وهو فى كل الأحوال ما أبهاه! ، ثم بعد ذلك الموطِن وفى أي محلٍّ تقطـن.

فقلتُ: لك ذلك، ولكن على أن أدفع ثمنها، وإلا فلاحاجة لي بها، فأبدَى رفضَه قائلا: لا تشغلْ بالك بهذه القضية، فهي لك مِنّى محبةٌ وهديّة، إنّى أحببتُك فى الله فاقبل مِنّى العَطيّة.

قلتُ: ولكن كيف لي بذلك؟ ومَن يضمنُ نجاتها من المهالك؟! فقال: ستأتيكَ بعونِ الله طـردًا، فلاتخش خدشًا لها ولا فقـدًا.

وهاهي الآن حقيقة فى يُمناي ، ترقُصُ من فرحٍ بها عيناي!

يقول الراوى: (أنجزَ حُرٌّ ما وعَدْ) ، إذْ وَفّى بسَعَةٍ ورغد؛ منحَهُ الله الصحةَ كلَّما قامَ أو قعَد، وصبَّ عليه خيرًا كلما دنا أو ابتعد، ثم زادَ شاعرُنا في أدبهِ وحِلمه، وبالغَ في جُوده وكرمه، وأنشأ يقول:

(نظَّـــارَتي)مِنِّي إليـكَ رَســـولُ
والشِّعرُ في وَصْفِ الجَمالِ يَطُـولُ
لاتَقتَـفِ الآثـــارَ وافتَـــح أَعيُنـًا
فلِكُـلِّ مَسْـأَلَةٍ لَـــدَيكَ حُلـــولُ
اكتُـب وزِدنـا مِـن بَيـانِك إنَّنـــا
عِفْنـا البُغَـاثَ[1] وقد طَـواهُ أُفُـــولُ
اقـرأ علينا مِن مقـاماتِ العُـــلا
سِحْـراً حَـلالاً ليس عنه عُـــدُولُ
(نظَّـــارتي)لكَ يا(صلاحُ) هَدِيَّـــةٌ
ولَعَـــلَّ مـــاأَهْـديتُكمْ مَقبُـــولُ

(١) البُغَـاثَ: والجمع بِغْثان: (الحيوان) طائر صغير لونه لون الغُبار ، بطيء الطَّيران ، طويل العنق :- إنّ البُغاثَ بأرضنا يستنسر [مثل]: يُساق للضَّعيف يَقْوَى ويستبدُّ إذا واتته الظروف ، وقد يُراد به أنّ مَنْ جاورنا عزَّ بنا .

المَقَامَةُ الدَّوائيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

عاينتُ زمنًا مضى، أدبرَ بمُرِّه وانقضى؛ مُنِيت[1] فيه قريتي بأيامٍ عجاف، فلا رحمةَ ولا شفقةَ ولا إنصاف؛ ضنَّ فيه الناسُ على أنفسهم بالكساءِ والغذاء، على حساب باهظِ العلاجِ بالدّواء، فقد شَحَّ وجودُه فى الأسواق، واحتكرَه بعضُ صيادلةٍ عديمو أخلاق، وصار شعارهم فيه: «لاخــلاق»، وبات لا همَّ لهم إلا الأسعار الجديدة، والمكاسب العديدة، بحجّةِ السياسات الرشيدة!

وامتعضَ الناسُ لذِكره؛ خشيةَ فُحشِ سعره، وباتوا على الأسقامِ يستقوون، ومن ذكـرِها يتهرَّبون، وهيَ تُلاحِقُهم وإن أغلقوا عنها العيون!

يقول الراوي: وممّا زادَ الطّين بَلَّة؛ أنْ أغلقوا الاستيرادَ كلَّه، وإنْ كان الصنعُ فى الديار؛ جلبنا الخامَ فى صغَار، فها هو السكر فقدناه دواءً، ولم نقدِر على ثمنه شراءً، نسألُك اللهمَّ مُعافاةً وشفاءً! فقد قُطِع دابرُ الإنسولين،

(١) مُنِيت: أُبتُليت.

وصارَ مريضُ السكرِ يهذي فلا يكاد يُبين؛ فصرنا نتسوَّلُه من الصيدلانيّين؛ قبّحَ الله المُتسَبِّبين، وألجَأَهُم إليه ولو بعدَ حين!

ولكي تطالب بجرعتك الفورية؛ لاتملكُ سوى الإذعانِ والدُّونِيّة[1].

وقد صدرت تعليماتٌ للبيمارستانات[2]: ألّا تُلقوا الحُقْنات (السرنجات) فى سلَّة المهملات، بل تستعملُ مرة ومرّات! فهؤلاء المرضى ـ في حدْسهم ـ أموات! كأنه أمرٌ واقعيّ، مصداقًا لقول الرافعيّ:

(فى الناسِ أحياءٌ كأمواتِ الوغَى ... وخْـزُ الأسِنَّةِ فيهم لايُؤلِمُ) .

يقول ابن أبي العينين : ومما يُذهب لُبَّ الإنسان؛ اختفاءُ « البيورنثول» علاج السرطان؛ فتضاعفتْ أوجاع الأطفال، وصاحبَها تفتُّت أكبادِ ذويهم والآل، وصارت دموعُهم كالنارِ تشوي الخدود، وتمنّى الجميعُ انتقال آلامهم للآباءِ والجدود! فصاروا يتساقطون صرعى كورق الشجر الذَّابل، ولاتُؤمَّلُ حياتُهم من اليوم إلى قابل، وأضحى البِيمارستان وكرًا للخفافيش، وندر فيه من ينجو ويعيش!

---

(١) الدُّونِيّة: الشعور العميق والمستمرّ عند الفرد بدونيّته وعدم كفايته وانحطاط قدره، وهي عقدة نفسيّة تنشأ عن الصّراع بين النُّزوع إلى التميُّز، والخوف من التثبيط الذي كان الفرد قد عاناه في الماضي وفي حالات مماثلة.

(٢) بِيمَارَسْتانات: جمع بيمارَسْتان: مستشفى؛ محلّ معدّ لإقامة المرضى فيه ومعالجتهم.

أما وحداتُ الغسيل، وماأدراكَ ما وحداتُ الغسيل! فهناك الهمُّ ثقيل والدموع تسيل، فماذنبُ من يغسلُ كليتيه؟! ألايكفيه ماهو فيه؟!

فلا فلاتـر ولامحلول، رُحماك ربي بالعقـول! ومن لكلمة الحق يقول؟!

كما اختفى من المشافي والأجزخاناتِ الجلوكوز، و كأنه لطاقيّةِ الإخفاءِ يحُوز، أوكزوجةٍ أبتْ إلا النشوز، فلم يَرِقّ كانِزُه لطفلٍ أوعجوز؛ فتعطَّلَ الأطِبّةُ وأُجِّلتْ الجراحات، وتعالتْ الأوجاع والآهات، إذ كيف المريضُ بدونه يقتات؟! وقد كان غُنْيةً عن العذبِ الفُرات؛ ليُجابهَ الآلامَ فى ثَبات، حيثُ يُبثُّ فيه الفيتامينُ والمضادات.

يقول الراوي: أما ألبانُ الاطفال فقد فاقتْ حدَّ الجنون، وكأنها مُخدّرُ الحشيش والأفيون، إذْ تخطّى سعرُ العلبة الحدود والأسلاك؛ لألبانٍ تُدعى: « بيبى لاك « فارتفعتْ الأكفُّ بالويل والهلاك، على المُتسبِّبِ فى الإرباك، وتعالى صراخُ الرضَّع من هول الجـوع، بعدما جفَّت من الأمهاتِ الضروع، فكيف بالثمارِ إذا ذبُلتْ الفروع؟!

يقول ابن أبي العينين: وهـرع الناس إلى الخُـرافات والأعشاب، وقابلوا الدواءَ بالإعـراضِ والإضراب؛ فانتعشَتْ أسواقٌ كاسدة، وراجتْ بضاعةٌ راكدة، وضحكَ الزمانُ للدَّجاجلةِ والعَطّارين، ومن على شاكلتهم من المُشعوِذين، وصار لسانُ حال الناس يقول: أوْدَت بنا يارحمنُ ريحٌ عاصفة، وليس لها من دونك ياربّنا كاشفة!

وأنشأَتْ إحداهنّ تقول، ودموعها على خدَيْها هُطُول:

نمْ يا صغيري نحن في زَمنِ الوهَنْ
ما عادَ في ثدي المُروءةِ من لَبنْ
كل الدُّروبِ إلى الكرامةِ أوصِدتْ
والناسُ قد عشقوا الحماقةَ والعفَـنْ
في ظلِّ سَوْطِ الذلِّ نحيا ها هُنا
والصمتُ خيَّم في رُبوعي من زَمنْ
و القهرُ يفرضُ جُبنَه و ظلامَه
و الرُّوحُ تلهثُ في تجاويف البدنْ
إني طرقتُ جميعَ أبوابِ الوَرَى
وجوابُ قومي قُمْ تجهَّز للكفنْ
كلُّ الورودِ تموتُ قبلَ ربيعِها
بالله قل لي كيف نحيا يا وطنْ
عزَّ الدواءُ ولا سبيل إلى الشِّفـا
لكن بعزِّ النفسِ تنهزمُ المِحَـنْ

المَقَامَةُ الكُتَّابيَّة

حدثَّنا ابنُ أبي العينين، قال:

أصبح الفتى (مسعود) يفرُك عينيه، ويتمطَّع متثائبًا ملء شدقيه، يكرهُ صباحًا مشرقًا أطلّ عليه؛ إذْ لم يحفظْ الحصّة المُكلَّف بها، ولم يُنصت لتلاوة شيخه لها، أما محفوظه إذا يُسمِعهُ تلجلج[1]، وإذا شافهَه أبانَ وأبلج[2]؛ فتمنّى لو لحقتْ بالشيخِ المنيّة، وماتَ بالسكتة القلبية، أوغرق في نهر البوهية، ويُذاع نبأُ وفاته في الجوامع، هوَ هوَ لا تُخطئُه المسامع، ولكن هيهات هيهات! إنها أحلامُ يقظةٍ وتُرّهات[3]، فما زال الشيخ حيًّا يُرزق، يُنعِم عليه المولى ويُغدق، متربّعًا يجلس على أريكته، تتلوّى الجِلدةُ من غيظٍ في قبضته، يُعْمِل أُذنيهِ ويعبثُ في لحيته ، يهتز طربًا كراكبٍ على بعير، يُثني على المُجيد وللكسول نَذير، أمامه صفٌّ من الفتيان طويل، يتمايلون كجريد النخيل، والكلُّ ينتظرُ دورَه للتسميع؛ فيُسعِدُ الشيخَ ولاسمهِ يُذيع، ويقفُ بجانب الشيخ الفتى

(١) تَلَجْلَج: تَرَدَّدَ في الكَلامِ وَلم يُبن ، تَلَعْثُم، لم يُفصِح.

(٢) أبلج: أبان، أفصح، أوضح.

(٣) تُرَّهات: البواطِل من الأُمور.

العرِّيف، عابسُ الوجه كفصلِ الخريف، نحيلٌ طويلٌ ذو ظلٍّ خفيف، يُرغِي ويُزبدُ ويكشّرُ عن أنيابه، يتوعّدُ الناسي والمهمل بعقابه، وأُجْلِستْ الصفوفُ جِلسةَ القرفصاء، وجوههم للحائطِ سواءً بسواء، يتمايلون طربًا وفي قلوبهم رُواء؛ هذا يستظهرُ حفظَ (البقرة)، وذاك يراجعُ سورة (الإسراء)، وهذا يتلُو اللوْحَ ـ مُحبّرًا ـ من سورة (النِّسَاء)، دويٌّ بآيات الله للصدور شفاء؛ كدَويِّ النحلِ يسمو ليُعطّرَ الفضاء، تتنزّلُ الرحماتُ عليهم من رب السماء.

أخذَ مصحفَه وانطلق مسعود، يقدّم رجلا والأُخرى تعود، يرجُفُ قلبه وترتعدُ فرائصُه[1]؛ فما راجع الحصَّةَ واللوْحُ ينقصُه، مشي يُهمهِم ويُتمتِم، ويدعو على نفسه بالهلاك ويشتُم، وأخته من بعيدٍ تقُصُّه وترقُبه؛ فالشيخُ ـ لامحالة ـ سيضربُه.

يتلكّأُ مسعود مُتصنِّعًا العَرَج؛ ريثما يأتي اللهُ بالفرَج، ثم جلس يُضمِّدُ ويربطُ بالشاشِ أُصبُعَه؛ ليُوهِمَ الرَّائِي أن جُرحًا أوجعه؛ فالفلقةُ[2](الفلكة) جنزيريةٌ لاترحم، ولايرِقُّ حاملُها ولو اُسْتُرحِم.

مالَ الفتى ـ مُغتمًا ـ إلى السوق، ولاشيءَ له في الدنيا يروق، وكأنه مُقتادٌ إلى السجن أو كأنه المخنوق !

---

(١) فرائصُه: جمع فَريصة: لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع.

(٢) الفَلَقَةُ: عَصاً غَليظَةٌ يُوصَلُ بِطَرَفَيْهَا حَبْلٌ ، تُوثَقُ بِهِمَا قَدَمَا التِّلْمِيذِ لِلْجَلْدِ عِقَاباً لَهُ عَلَى مَا يَرْتَكِبُهُ مِنْ خَطَإٍ، ويُقال لها بالعامية (الفلكَة).

يقول الراوي: يلوحُ مِن قريبٍ المسجِدُ العبّاسيّ، فلكم تألَّقَ بالحفلاتِ والأماسيّ! يشمخُ مزهُوًّا بالكتاتيب، يحتضنُ ثلاثتها كشمسٍ لاتغيب: أولُها للشيخ (محمد عبد الوهاب)؛ وهبهُ القرآنَ ربُّ الأرباب، ذو بُنيانٍ خفيفٍ رقيق، يشعُّ منه نور وبريق، دقيقُ الساقين ذو قولٍ محمود، يُحاكي هيئة الصحابيّ (ابن مسعود) من الدار إلى الكتّاب يذهبُ ويعود، يستظلُّ بـ كيسٍ بلاستيكي يحْوِي أوراقَه ، كأنه بستانه ورُواقُه، ظلّ بحوْزته أعوامًا عديدة، يمنحه الظلَّ أزمنة مديدة، حتى سلَبتْ لونَه الشمس، بعد مُداعَبةٍ منها وهمس؛ فبهتَ وابْيَضَّ بعد احمرار؛ إذ كان مظلّتَه طوال النهار.

يُجِلُّ الجميعُ الشيخ ويهابه، ويذكرُه بالخير في حضوره وغيابه، لاتفارقُ يدُه العصا الإفرنجية، وقد تكونُ جِلدةً أُسطوانية، وفي رُكنِ الكُتَّاب تقبعُ الفلقةُ الجنزِيريّة، وماأدراكَ ما الفلقةُ الجنزيرية!

ساقٌ أُسطوانِيَّةٌ من الخشب، مُصمتةٌ تكشِّرُ مِن غضب، تتوسّطُها سِلسلةٌ مِن الجنزير؛ تعَضُّ السِّيقانَ كأنها المسامير، يحملُها اثنان مفتولا العضلات، قد نُزِعتْ من قلبيْهما الرحمات، يلويانِها ويشدّانِ بإقدام، ولايأبْهانِ بشفقةٍ

أواسترحام، والشيخُ يَهوِي ضاربًا كالفارس الهمام، تتلوّي الجلدةُ على المُجَنْزَرِ كالثعبان؛ فتُلهِبُ الجِلدَ وتُصيبُ بالغثيان.

يقومُ المضروبُ مُثقلًا بالأوجاع والآلام، ويُؤْمَرُ بالسّيرِ للخلف والأمام؛ حتى لاتتورَّم منه الأقدام، ويدبُّ على الأرض دبيبًا، ليُخْمِد نارًا في قدميه ولهيبًا، وهذا جزاءُ من لم يحفظ ويُراجع، ويُثبّتُ الماضي في رأسه ويُتابِع.

وكان الشَّيخُ يُوبِّخ ويُؤَنِّب، ويُرَفِّعُ الأيدي ويُذنِّب، ويقفِـزُ في وجُوههم ويرقُص، ويسخرُ من شأنهم ويُنقِص، ويُقطِّعُ من الجلودِ إذْ يَقرُص، وربّما عَضَّ المُتعْتعَ بأسنانه، وزجَّ تحت دِكَّتِه ببُنيانِه، ثم يصطحبُه محبوسًا إلى البيْت، إلى أن يحفظَ ويقولَ ياليْت!

ثم يليه كُتَّابُ الشيخ (محمد عَطية) منحةُ الله للقرية وأنْفَسُ هديّة، أطالَ الله عمرَهُ ودام يُحبِّر، يتلُو آياتِ الله يسمو ويُعبِّر، تسمعُهُ كأنَّه الشيخُ الحُصَرِيّ؛ قرآنٌ لاتسمعُهُ إلا مِن مِصريّ، فما أروعهُ حين يصلي التَّراويح، فيُجلي القلوبَ ويُهيِّجُ التَّباريح![1]، أنفقَ عمرَه يُعلِّمُ القرآن، وكم لأحكامِه أجلَى وأبان! تراهم أمامه صبيةً وغلمانا، يرشُفون من أحكامِه أشكالا وألوانَا.

ضعُفَ البصرُ منه واحْدَودبَ الظّهر، يدوسُ الآلامَ لايعرفُ القَهر، وضيءُ المُحيَّا أبيضُ اللحْية، وكأنه الصحابيُّ الأنصاريُّ (دِحية)، صوته مجدولٌ بالخشوع، وانكسارٍ لله وخضوع، مارآه أحدٌ إلا وانكبَّ عليه؛ ليُقبِّلَ رأسَه ويديْه، يُقدَّمُ في الصلواتِ والجنازة، ولا أحدَ يجرُؤ فيجتازه، وأهلُ

(١) التباريح: جمع تَبْريح: شدائدُ (ويغلب استعمالُه جمعًا) عانَى تَباريحَ الحياة : مشقَّة المعيشة، تَباريحُ الشَّوْق، تَباريحُ الهوى: تَوَهُّجُه، تكاليفُه.

الميّت يدفعونه للصلاة دفعًا؛ لينفعَ بدعائه ميِّتَهم نفعًا، يرتكِنُ في المسجد إلى العمود، وأُكُفُّهُ ضارعةٌ إلى الواحد المعبود، يتلألأُ في المسجد كالهلال، وأذانُه يُدوِّي كأذانِ بِلال.

يقول ابن أبي العينين:

يمرقُ مسعود لا يحفظُ ولايجيد، إلى ثالثهم الشيخ عبد الحميد؛ ثالثُ الثلاثةِ الكِبار، ومحطُّ الاحترام والوقار؛ طويلٌ عريضُ المَنكبين فَتِيّ، ذو وجهٍ وضيءٍ بهِيّ، يُعنَى بهيئتِه وهندامه، وكذا شرابِه وطعامِه، اختبأَ مسعود عن الأنظار؛ كي يكون من الشيخ في استِتار، وظلّ يجيءُ الفتى ويروح، إلى أنْ تسلل للمُعاون بلاطموح؛ بائن الطّول مشمِّرًا ساعديْه، وقد انثنى على دكّتِه مُشبِّكًا يديْه، وتدلَّى رأسُه إلى ثدييْه، في النوم العميق يروحُ ويغُطّ، ومسعود يُلقي رحْلَه عنده ويَحُطّ، فيُهمهم ثم يُتمتِم ويتخطَّى، وشيخِيرُ الشيخ على صوتِه قد غطَّى، يخلِطُ الآيات مزهوًّا يتمطَّى، حتى إذا ما الشيخُ أفاق، ملأ صوتُ مسعود الآفاق، وشرع يتبجَّحُ ويقول، وقد حازَ من الشيخ القبول: أنهيْتُ ـ ياسيدنا ـ تسميعَ الحِصة، وقد زالَ خوفُه وزلقتْ الغُصَّة[1]؛ لذا يتكوّمُ على الشيخ المسمِّعون، يتكاثرون عليه ويتدافعُون؛ هَربًا من الشيخ عبد الحميد، فهو قويٌّ وفي الحق شديد، يحاسبُ على اللحن والحرف، ومايتبعُ من نحوٍ

(١) الغُصَّة: الغُصَّةُ : ما اعترض في الحلق من طعامٍ أَو شراب والجمع : غُصَصٌ ، أَلَمٌ وَحُزْنٌ وهمٌّ وغمّ شديد متواصل.

وصرْف. نادى الشيخُ (مسعودًا) يومًا، وألقى عليه العتابَ واللومًا: هل أنا مُـرٌ لتهجروني، أم مشغولٌ فتعذروني؟! ما لكم تكأكأتم هكذا على الرجل، وأصابكم مني الفزعُ والخجل؟!

فذهب إليه الفتى يجرُّ رجليه، ويُبَلِّلُ بريقهِ جفافَ شِدْقيْه، وانبرى يستظهرُ الحِفظَ ويُسمِّع، يعصِرُ محفوظَه ويُجمِّع، ولكن هيهات هيهَات!

لقد تفلَّتت منه السورُ والآيات، فتركَ الشيخُ الريشةَ وأطاحَ بالمحبرة، ونادى غاضبًا أنْ هاتُوا (المُجنزَرة).

فوقف مسعودٌ يرتجف، وأبانَ أُصبعَهُ المُلتحِف.

لم ينخدعِ الشيخُ لحيلته، وحملقَ فيه عابثًا بلحيته، ثم أودعَ جَلْدان ساقيه الفلكة، ومنعاه التملُّصَ والحركة، فأوجعهُ الشيخ قاصدًا، وألهبَ قدميه عامِدًا؛ ليصبحَ مُنتبهًا وراشدًا، ويحفظ ماعليه من السّور، ويُلقي خلفه الاستكانةَ والخَوَر، فعاهدهُ (مسعود) بعدها على الاستقامة، وأن يجعلَ القرآن ـ دومًا ـ أمامه؛ فبه سيحققُ أمانيه وأحلامَه.

هذا ما كان من أمر الأشياخ ومسعود، في زمانٍ سقاهُ اللهُ بالرِّضا والسُّعود، نضَّره ورحمَ أيامَه ليته يعود؛ لنحملَ أحذيةَ المشايخِ على الرُؤوس، ونعِي المواعظ والآدابَ والدروس!

لقد علَّمونا: معلمين، أطبّةً ومهندسين، وبذلُوا من أعمارهم في تحفيظهِ السنين.

ومرّت سنون تتلُوها سنون، وصار الصبيةُ أشياخًا يُحفِّظون، وعمَّ نفعُهم في القرى والنُّجوع، وذَاع صِيتُهم في البلدانِ والربوع، وأصبح يُقالُ في كلِّ زمانٍ ومكان: البـوها بلد القرآن ، البـوها بلد القرآن.

ولله درُّ الشاعر حين قال:

أَكْـرِمْ بقـومٍ أَكْرَمُـوا القُرآنـا ... وَهَبُـوا لَـهُ الأرواحَ والأَبْـدَانـا
قومٌ.. قد اختـارَ الإلـهُ قلوبَهُـمْ ... لِتَصِيرَ مِنْ غَرْسِ الهُـدى بُسْتَانـا
زُرِعَتْ حُروفُ النورِ بينَ شِفَاهِهِمْ ... فَتَضَوَّعَتْ مِسْكـاً يَفِيـضُ بيَانَـا
رَفَعُوا كِتابَ اللهِ فـوقَ رُؤوسِهِـمْ ... لِيَكُونَ نُوراً في الظـلامِ... فَكَانـا
سُبحانَ مَنْ وَهَبَ الأُجورَ لأَهْلِهَـا ... وَهَدى القُلُوبَ وَعَلَّـمَ الإنسانـا
يا ختمةَ القـرآنِ جئـتِ عظيمـةً ... بجُهـودِ قـوْمٍ ثَبَّتُـوا الأركانـا
بَدْءاً مِـنَ (الكُتَّـابِ)، أَوَّلِ نَبْتَـةٍ ... غُرِسَتْ، فأَثْمَرَ عُوْدُهَـا فُرْسَانـا
حَمَلُوا على أكتافِهِـمْ أحلامَهُـمْ ... يَبْنُـونَ صَرْحـاً بالتُّقَـى مُزْدَانـا
لَبِنَاتُهُ اكتملـت بحفـظِ كتابِهِـم ... كَالنُّورِ حِينَ يُتِـمُّ بَـدْرَ سَمَانـا
يا ختمة القرآن أهـلاً.. مَرْحَبـاً ... آنَ الأوَانُ لِتُكْمِـلي البُنْيَـانـا
جُهْدٌ تَنُوءُ بِـهِ الجبـالُ تَصَدُّعـاً ... وَتَفيـضُ مِنْـهُ قُلُوبُنَـا عِرْفَانـا
مِنْ كُلِّ صَوْبٍ جاءَ قَلْـبٌ خَافِـقٌ ... يَسْتَعْـذِبُ التَّرْتِيـلَ والإتقـانـا
غُرَبَاءُ مِنْ كُلِّ البِقَـاعِ تَجَمَّعُـوا ... هَجَرُوا الدِّيَارَ وَوَدَّعُـوا الأَوْطَانـا
غُرَبَاءُ لَكِنْ قَـدْ تآلَـفَ جَمْعُهُـمْ ... صَـارُوا بِنِعْمَـةِ رَبِّهِـمْ إِخْوَانـا

المَقَامَةُ الشَّوَارِيَّةُ

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال :

بينما يوشك العِقدُ الثّاني على التفلُّتِ والانصرام، من الألفية الثانية ياسادة ياكرام، إذ لم يبقَ فيه إلا عامان، ويُطوى كغيره من سابق الأزمان، فهاهي السنون تمر بعد السنين، وتلوحُ من بعيد سنة ألفين وعشرين، والفتاة (فاطمة) قد طالت خطبتُها، مُذ قُرئتْ من عام فتحتُها، فكم تمنتْ أمها لو حُلَّتْ عقدتُها! وجاءها ـ راغبا ـ ابن الحلال؛ مؤدبًا مهذَبًا ميسور الحال؛ لتتستَّر في بيت الزوجية كحال أترابها[1] أسماء وأُمنيّة.

أما وقد تم من الله المراد، وطرقَ بابها السّتر والإسعاد؛ فأنّى ثم أنّى لنا بالشُّوَار[2] وقد شُوينا بلهيب الأسعار؟! سؤالٌ وَعَته الأم وباتتْ تحفظه، تلمزهُ بكوعها لتوقظَه؛ زوجًا آثرَ السلامة والتحفْ، يغُط ـ نَهمًا ـ في النوم بشغف، فقد أعياه الهمُّ والتفكير، وأرهقه الحسابُ و التدبير، فخلدَ إلى الدِّعة والراحة؛ هربًا

(١) أترابها: أتراب: جمع تِرْب: مماثل في السِّنِّ ، ذكرًا كان أو أنثى، وكلهن من سِنٍّ واحدة، أو مماثلات في السنِّ لأزواجهنّ.

(٢) الشُّوار: جهَاز العروس.

من المكاشفة والصراحة، لكنه ـ رغم أنفه ـ سيقوم؛ ليواجه مصيره المحتوم، ولو تكالبتْ عليه الهموم ، فالغيثُ ـ لاشك ـ يَهمي بعد الغيوم، والفجر بعد الظلام يبزُغ وينبلج؛ فتتسعُ الحلقات الضيقة وتنفرج، وكما يقول المثل الشهير: (العبد في التفكير والرب في التدبير) تهمزهُ الزوجةُ ليصحوَ ويستفيق، فيهُبُّ منتفضًا من نومه العميق، فيشهقُ ـ فزعًا ـ كأنهُ الغريق!

قُمْ يارجل وشاركني الأمـر، ولنذهب اليوم إلى (ميت غمر)[1]؛ أصبحتُ أستحيي من الأصهار؛ يمر النهار يتلوه نهار، ولم نشترِ شيئًا من الشُّوار!

هاكَ كل ما أمتلك وأحوز، من كدِّي ومالي المكنوز، وانتزَعتْ أساورَ كم آنسَتْ معصميْها، والتقطتْ قُرْطًا كم تلألأَ في أُذنيها، ثم فتحَ الزوج أحد الأدراج؛ ليستلَّ مبلغا أوْدعه لعَوزٍ واحتياج، وهرولت هي الأخرى بدفترها لمكتب البريد؛ لتسأل عمّا فيه فتستعيد، ثم مرَّتْ على صديقةٍ كانت قد وعدتْها، بمنحِها الثّاني في جمعيةٍ أنشأتْها، فشرعتْ تتوسلُ لها وتتذلل، والصديقةُ تتأفَّفُ وتتململ، وتتعذَّر لها وتتدلَّل، إلى أن وافقت بأن تمنحها الأول، وانطلقتْ إلى الدار مسرعة، تدوسُ اليأسَ وتقرَعَه، بل تُصَارعه فتصرَعه، ولسانُ حالها يواصل تضرُّعه: مَن ينوِ الخيرَ فالله معَه.

(١) ميت غمر : مدينة مصرية، تتبع محافظة الدقهلية إدرايا، تقع شرق دلتا النيل على ركن يرتكز على منحنى من الضفة الشرقية لفرع دمياط في أقصى جنوب محافظة الدقهلية على بعد ٤٥ كم تقريبا من مدينة المنصورة.

ألقتْ في حِجْر زوجها ما جمعتْ، راغبةً زاهدةً وما طمعتْ، فنشط الرجل من عِقال، وتهللَ وجهُه وقال: الحمدُ للهِ ربِّ السماء، أن دبرَ أمرنا بغير عناء، فلطالما قال من سبَق: سيأتيكَ برزقهم من خلق!

آمنتُ بالله الواهب وحده، يرزقُ ويمنحُ عبده.

وتراءى يختال أمامهما الشُّوار، وحَسِبا أنهما اجتازا الاختبار؛ فقد حازا مِئةً من الآلاف، فهل سيحالفهم بها الإنصاف؟!

لفَّت الزوجةُ ـ حريصةً ـ المال في صُرَّة ، وناولتْ زوجها بعض الجنيهات للأُجرة، وانطلقا بالمال كأنه الجمـر، صوْب المركز العامر (ميت غمر): مدينةٌ تعُجُّ[1] بالناس والبضاعة، مدينةُ الزِّراعةِ والتِّجارةِ والصِّناعة، يبتَاعُ الراغبُ منها حاجاته ومتاعَه، فيها صنوف الطعام والشراب، وعصيرُ القصب منها على الأبواب، لايرتادُها مرتادٌ إلا ويشربه، كالحليب يُرغي ما أطيبَه! يُطوِّقها فرع دمياط من النيل؛ ليفصلها عن مدينة (زفتى[2]) بقليل، في منظرٍ خلَّابٍ وجميل. تشقها قضبانُ السكة الحديدية من بورسعيد إلى الأسكندرية، مشهورة بمصانعَ للألومنيوم، ومصنعٍ للغزل تنعَقُ فيه البُوم.

---

(١) تعُجُّ: تمتلئ.

(٢) زِفْتى: مدينة تطل على نهر النيل، وهي إحدى مراكز محافظة الغربية في مصر، و في الجانب الاخر من النيل تقع مدينة ميت غمر.

عمر أفندي، صيدناوي، وبيع المصنوعات، كم كانت لنا في أروقتها من ذكريات! شركاتٌ كانت للقطاع العام، كم ابْتعنا منها وحققنا الأحلام! سقى الله أيامها غيث الغمام، صارت اليوم أطلالا وركام، واشتراها بثمن بخْسٍ بعضُ اللئام.

ابتلَعَنا شارعٌ كبير يُدعى (العَـرْشَة)، و كلٌّ على جانبيه قد بسطَ فَـرشَه، والجميع يُنشدُ فيما يبيع شعرًا، ويخفضُ ـ مرغَمًا ـ له السعرَا؛ ليبيع ويرحل في ساعته؛ كي لاتتلف أو تبور بضاعته.

الفواكهُ ترفلُ في أبهى الحُلَل، والأسماكُ تقفـزُ من الطُّسوت والحِلَل، تفوحُ رائحةُ الطَّعميّةِ من المطاعم، لذيذةٍ شهيَّةٍ لكلِّ طاعِم، والكُشريُّ قد سال لمنظره اللعاب، وأحذيةُ (الصياد) تخطفُ من روعتها الألباب، والملابسُ خلف الزجاج تتأنّق، تلتمعُ بالبهاء والرونق، ترتديها تماثيلُ تكاد تنطق، رائحةُ الشِّواءِ تغزو الأنوف، من مطعم (زلطة) حيث مشويّ الخروف!

يقول ابن أبي العينين: وانطلق الزوج تتبعه زوجته، مقاومًا رغباتِه ومتعتَه، لكل مأكولٍ ومشروب، ومعروض وملبُوسٍ ومرغوب، واتجهوا صوب محالِ الأجهزة الكهربيّة، حيث فخر العائلة المكاوية؛ "أبو محمود الحاج عبد الباسِط" زادهُ بسطةً ربهُ الباسط، طال في حُسنِ عملٍ عمرُه، وعمَّ في الورى خيرُه، ودام بذويه وصْلُه وبرُّه، فقابله ابنه البشوشُ «أبو معاذ»، ورحب قائلًا: أهلا بالأُستاذ، واصطحبه في جولةٍ بين الأجهزة، وبيده كشفٌ قد أعدّهُ وجهّزه، وانتقى له الجيّدَ

منها وحرّزه: ثلاجة ستةَ عشرَ قدمًا ذهبية، وغسّالةَ العبدِ الإيطالية، وأُخرى نصف أوتوماتيكية، سقا الله أيام الطستِ والغسالات العادية، والمِكنسة الألف وخمسمائة وات الماليزية، وقد كنا نقُمُّ الدارَ بالمقشَّات؛ كانت عراجينَ تحمل التمرات، وانتقى البوتاجاز ذا العيونِ الزرقاء العفيّة، المدْفأةَ والمراوحَ والخلاطاتِ الفرنسية، وجهازًا يُدعى الفريزر للتجميد، ستةُ أدراجٍ ذو لونٍ فريد، والتقط شفَّاطًا ومكواةً وأسطواناتٍ للغاز، رحمَ الله أيام الكانون ووابور الجاز، وهذه شاشةٌ للعرض ثلاثٌ وأربعون بوصة، وحاملها ولوازمها غير منقوصة، ثم يمّموا شطرَ التربية النوعية؛ لشراء مستلزمات المطابخِ العصرية، بارك الله الحاج (عبد الرحمن) ضميرٌ حيٌّ يتمثَّلُ في إنسان؛ بضاعتُه ـ بحقٍّ ـ تسرُّ الناظرين، من الصيني والأكروبال والميلامين، وأواني السيراميك والتيفال والجرانيت، رحم الله قصاعَ الفخّار والنحاس في الحوانيت، والمُبيِّضُ يتراقصُ في جوف الأواني فتصفرّ، ثم تُستعملُ فتصدأُ وتخْضرّ، وكذا اشتروا ملاعقَ وسكاكينَ وكاساتٍ وغيرها، وأشياءَ تعجزُ المعاجمُ عن حصرها، ثم البُسُط من أفخر السجاد، كان الله في عون العباد، فقد كنا نفترِشُ ـ سعداء ـ الحصير، فتستقيم الأعوادُ ويناَى الدَّاءُ الخطير.

وبقي أن تُجلبَ من (المحلة) المفروشات، ويُتمّ النجارُ صنعَ المطبخ وترصيعَ الدهانات.

يقول الراوي: ولقد غالَى الناسُ على أنفسهم، وسابقَ قديمَهم أحْدثُهم، واستحدثوا الوردَ والتُّحفَ والنَّجف؛ لتُقرَّ له النساءُ بالسبق وتعترف، بل

غالتْ البنات ورغِبْن في الحاسوب؛ ديسكًا كان أو لاب توب، ولو أُفرِغتْ من آبائهنّ الجيوب، فهو بذلك مُكرَهٌ مغصوب، ولو مدّ يده واستدان، أو قُبِض عليه واقتاده السجّان، غير آبهٍ بأبيها ولو اُقتُلِعتْ الجدران!

هكذا عندنا يُختار الجِهاز، يأتي زائدًا ولو مِن فقرٍ وإعْواز؛ رؤوسُ أموالٍ راكدةٌ ومُهدرة، وأشياءُ لاطائل منها مبتدَعة ومنكرَة؛ الآلافُ تقبعُ في (النِّيش) بلا فائدة، وزجاجٌ لا تطلبُه أفخرُ مائدة، وعُلبٌ تحت الأسرّة مهملة، وأواني فُرادى وأُخرى مجمَلة، ومفارشُ في أجربتها مُعطَّلة، أجهزةٌ لاجدوى منها وأُخرى مكرورة، فتبًّا لنساءٍ آمرةٍ ناهيةٍ لامأمورة!

ومن أطقم الأسرّةِ رأيتُ الخمسين، وكذا من الألحفةِ والبطاطين، هنالك ما يكفي لعشرات السنين!

يقول ابن أبي العينين: ثم أقلَّتْ الزوجين والشُّوارَ السيارة، إلى القريةِ تتهادى من شارع إلى حارة، والناسُ من حولهم في ذهول، والكل منهمكٌ وفي الرؤية مشغول، حتى تجاوزْنا الشوارعَ إلى مشارفِ الحقول، حيث منزل العائلة المأمول؛ لنجد الأهل والجيران في الانتظار مثول، فشرعوا سريعًا في الإنزال، والنساء تزغردن ويصيحُ العيال، فدعوتُ الله راجيًا القبول، ولسانُ حالي يذكرُ ويقول:

رحم الله سيدة النساء؛ بنت أبي بكر السيدة أسماء!

عجبتُ أشدَّ العجبِ من جهازها، فأكرِم بها وماكان من شأنها: فراشٌ ووسادةٌ من ليف، في موضع بسيط نظيف، وحَشِيَّةٌ فيها مثل مافي الوسادة، يغمرها والزبيرُ الرضا والسعادة، وقِربَةٌ من جلدٍ للسُّقيا والاغتسال، أنعِم به من حالٍ لخير المآل، فأثْمرَ فُضلياتِ النساءِ وخيرَ الرجال، فهلَّا اعتبرَ الآباءُ والأمهات، ويسّروا على أنفسهم في تجهيز بنيهم والبنات؛ لتعمَّ البركةُ ويلتئمَ الشتات؟!

ثم أنشأ الزوج يقول:

لله دَرُّك يا ابنتي ماذا جرى ؟ أحقيقةٌ أم حلمُ نوم ما أرى؟
في كل دربٍ صِرتُ أروي قصتي والكلُّ يرقبُ ما رويْتُ وصوَّرَا
هذا الجهازُ مُطوَّرٌ و أريدُه والشاشةُ السوداءُ أحسنُ منظرا
ولم الطقومُ الساكناتُ خِزانةً و كأنها في الأسْرِ ماتت آخرَا؟
من قال أن المَهْرَ يرفعُ قيمةً إن القناعةَ فيكِ تغرسُ جوهرَا
هذي الحبيبةُ مُهجتي وشريكتي و شوارُها فيما رأيتُ مُقتَّرَا
هذي الحصيرةُ من جميل شوارها و رأيتُ طستًا من نحاسٍ أحمرَا
ماذا جرى يا قوم ؟ لا تتسابقُوا كيف الرضا خلفَ السفاهةِ أدبرَا؟
ولَم الدُّيونُ القاتلاتُ تتابعتْ؟ ووصيةُ الرحمنِ حُكمٌ في الورى
فلم المبالغةُ المقيتةُ إخوتي؟ و الخيرُ فيمن قد وَعى و تدبَّرَا

المَقَامَةُ التَّجْرِيسِيَّةُ

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

انطلق مُنادي القرية (شعبان) متبخترًا مزهوًّا يركب الأتان[1]، وبرُفقته بعضُ الصحبِ والخلان، يرفعُ عقيرتَه تجوبُ الآفاق، تتسمّعُه الأذانُ وترمُقه الأحداق، يضربُ فوق الطبلة بالعصا؛ ليُخبرَ من أطاع ومن عصى، وأنشأَ ينادي ويقول، ويُنبّه من الغفلةِ والذهول: يا أهل القريةِ الكراااام، أعيروني أسماعكم والأفهَام، واحفظوا عنّي هذا الكلام، و ليبلِّغ المستيقظُ منكم النّيام: يخبركم الحاج إسماعيل، كبير عائلة قابيل؛ أنه بعون الله الواحد الأحد، وبعد عصر يوم الأحد، الرابع عشر من شهر الله رجب، تجريسُ البُنيَّة (غندورة) قد وَجَبْ، هكذا يبلِّغُكم أبوها، فهلمُّوا ياقوم لتجرِّسُوها؛ ليحيا سَعيدًا ويعيشَ أخوها.

وقد كان من عادة بعضِ العائلات، عند إنجاب الصبيّ بعد البنات أن يُجرِّسوا أخته التي تسبقه؛ كي تتركه يدُ المنيَّةِ وتَعتِقَه، وإذا عاش ولدٌ بعد

(١) الأتان: الحِمارة. والجمع: أُتُنٌ، وأُتْنٌ.

انقطاع، جرَّسوا أخاه على المرائِي والأسماع، ولفُّوا به في الحواري والأصْقاع، وأسموه أسماء لاتليق، كخيشة وشليتة والبطريق، ولايتورّعون أن ينعتوه بالقرموط، وربما العبيط والبغل والزعطوط!

يقول الراوي: وقد قامت الأسرةُ على قدم وساق، فالكل لهذا اليوم يرنو ويشتاق، يستعد الجميعُ لمشهد التَّجريس، وكأنه عُرسٌ للفتى (عتريس)

جلبوا للفتى حمارةً سوداء، بطيئةَ الخطْوِ كأنها عرجاء، جرّها صبيٌّ من خِطامها[1]، وربطها في شجرةٍ من لجامها، ثم ألقى أمامها بعض العليق؛ لتقوَى فلا تضلّ الطريق، واجتمع الصبيةُ والأطفال، وكذا النساءُ والشيوخ والرجال، تترى الوفود ويتزايدُ الإقبال، وجاء الأطفال بحوزَتِهم العِصيّ والصفائح، فيعجبُ منهم الغادي والرائح، ويأخذهم للمعرفةِ الفضول، فيمكثون ليرَوا باقي الفصول.

وحانت الساعةُ الموعودة، ولم تكن (غندورة) موجودة؛ فقد ذهبتْ إلى الترعة لغسلِ المواعين، فلعبَ برأسها إبليسُ اللعين، وحرَّضها على صيْدِ الأسماك، وأشار لها بأنْ هنااك، في مُلتقَى الموج والحِراك، فانتزَعتْ مصفاةً من الأواني، وما هي إلا دقائقُ وثواني، وقفزتْ لتنتشلَ بمصفاتِها الأسماك، ولم تدرِ بأنْ قد نُصِب لها الشِّراك. لقد زلِقتْ قدمُها إلى العميق؛ لتلقى مصيرَ

(١) خِطامها: جمع أَخْطِمة وخُطُم: ما يُوضع على أنف الدّابّة لتُقاد به، مِقْوَد، زمام.

سابقها الغريق، فأخذتْ تطفو فوق المياه وتغطَس، وأوشَكتْ روحها أن تخرجَ وتفطَس، وصرخَت تُنادي بأعلى الصوت: أغيثـوني، أرى بعينيَّ الموت!

وساعةَ افتقدها الجيرانُ والأهلون؛ خرجوا ـ سريعًا ـ عنها يبحثون، ينادون عليها من مآذن الجوامع، وفي السوق والأزقَّة والشوارع، ومن بعيدٍ جاءَ جَاءٍ يجري بسرعة: أغيثـوها؛ إنها تغرقُ في الترعة، فهرعَ القوم لينقذوها، ومِن الترعة يخرجوها، وأدرَكتْها العنايةُ الإلهية، قبل أن تلفظَ أنفاسها النهائية، وتفسدُ على الأهل فرحتَهم، ولاينالون بُغيتَهم ومأربهم.

تحمَّمتْ من وسخٍ (غندورة)، وصارت تلمعُ كالبلُّورة، ثم لبستْ خُلخالها الفضة، بعدما أعدُّوا لها طَاسةَ الخَضَّة[1]؛ فقد فزعتْ ساعة الغرق، وأصابها الرعبُ والفـرَق.

وبدأ مهرجانُ التَّجريس؛ ليطول عمرُ الفتى (عتريس).

أركبوا (غندورة) الحمارة، وراحتْ تُبدي في ذلكَ مهارة؛ تهزُّ رجليها وتشدُّ اللجام، وكأنها الفارسُ الجَلْدُ الهُمام، وركب أخوها خلفها بالمقلوب،

(١) طاسة الخضَّة: إناء نحاسي ضحل محفور عليه نقوش كثيرة دقت بعناية عليه تحمل عدد من الآيات القرآنية، ونقوش أخرى، يوضع في جوفة التمر واللبن والمياة، وهي موروث شعبي وثقافي لا زال موجودًا في بعض البيوت التي تعتقد أنه يبطل السحر ويعالج الأمراض المستعصية التي يعجز الطب عن علاجها.

إذ كان هذا هو المطلوب، وألبسوه الجلبابَ مقلوبًا ، وأمسي على أمره مغلوبًا، وصار ظهرُ الفتى في ظهرها، والعمامةُ تُطوِّقُ شعرَها، و(عتريسُ) بدوره يلبسُ العمامة، والجمعُ الغفير خلفه وأمامه، وثبَّتَ أبوه في العمامة الرِّيش؛ ليُلقّبَ بعدها بـ أبي الرِّيش.

يقول ابن أبي العينين: وتحرك الركبُ يجوبُ الشوارع والحارات، والنساءُ تزغردن فوق أسْطحِ البناوَات[1]، يدعون له بالحياة وطول العمـر، والغلبةُ له والنهيُ والأمر.

يضربُ الأطفال بالعصيِّ فوق الصفائح؛ ومنهم المنادي والمنشدُ والصائح، ويقرعُ بعضهم فوق الطبول، ويصلون على النبيّ الرسول، يرددون مُنشدين الأهازيج[2]، وآخرون يفرقِعون بالكرابيج ، ويقولون بصوتٍ بهيج: (يا أبو الرِّيش إن شا الله تعيش.. يا أبو الرِّيش إن شا الله تعيش) وآخر يصول

ويجول، ومَن خلفه يردّدُ ويقول: (جرسوها يعيش أخوها.. جرسوها يعيش أخوها) ومازال الموكبُ يلفُّ ويطوف، وتعدّى الناسُ المئات إلى الأُلوف!

والفتى (عتريس) يرقبُ المشهدَ بذُهول، ولايدري ما الذي يُخفيه المجهول، وكان من الصبية من يقذفُ بالحجارة، وبلغ الأمرُ حدَّ الإثارة،

(١) البِناوات: جمع بناء، وتُقلب الهمزة واوًا أو تبقى ؛ لأنها مُنقلبة عن أصل.

(٢) الأهازيج: ما يُترنَّم به من الأغَانِي الشَّعْبِيَّة.

بأن همزَ أحدُهم دُبُـرَ الحمارة؛ فطفقتْ بخَلْفِيتيْها ترْفُس، وتعضُّ بأنيابها وتَعْفِس[1]، فهاجَ الوالدُ يسبُّ ويخْفِس[2]، وفي مشهدٍ رهيبٍ مَهيب، وبينما القومُ يأتون بالأعاجيب ، إذْ سقطَ الفتى المُجرَّس، ومِن فوق الحمارة تكرْدَس[3]، فما على هذا تدرّب و تمرّس، وارتطمَ ـ بشدةٍ ـ رأسُه بحجَر، قد بالغَ في القسوةِ وفجَـر، ارتجَّ على إثْرِها مُخُّه، وكأنْ قد نُصِب فخُّه، وتجرّعَ الفتى من كأس الجهلِ المُتْرَعة، ولقي (عتريسُ) ـ في الحال ـ مصرعَه.

فبئس عادةُ القومِ وتقاليدهم البالية؛ لقد كبَّدتهم فلذات أكبادهم الغالية.

شرعَ الوالد يحْثُو الترابَ على رأسه ويندب، ويجلدُ ذاته يوبِّخها ويُؤنِّب، والأم شقَّت من حزنٍ ثوبها، ووضعتْ طينًا على رأسها، ولطمَت (غندورة) على وجهها، وذبُلَ من همٍّ وردُها؛ فقد جرَّسوها بين الخلائق وفضحوها، وأبدًا أبدًا ما عاشَ أخـوها!

فسبحان مقدّر الأقدار، والعليم بالآجال والأعمار، الحيّ الذي لايموت، خالق الخلائق وباسط الملك والملكوت!

---

(١) تعْفِس: تطرحُه أرضًا.

(٢) يخْفِس: ينطقُ بالقبيح من القول.

(٣) تكرْدَس: انقَبض واجتمع بعضُهُ إلى بعض، تكوَّم

ولله درُّ الشاعر حين صال وجال، ثم انْبرى مُغتمًا فقال:

يا قــومُ لا تتشاءموا ما تفعلون مُحــرَّمُ
فالعمرُ محضُ قضائه فلتؤمنـوا و لتعلمــوا
جرّستمُــو فقتـلتمُــو ما ذنبُ من أعدمتُمو؟
ما ذنبُ عتريسٍ إذا القُـوَّادُ فيكم قدْ عَمُوا
عتريسُ ماتَ مُجرَّسًا والأمُّ أمستْ تلطُــمُ
بالجهلِ مات فهل تُرى أدركتمُو كي تنعموا؟
إن الحياة قصيرة فلأمر ربي استسلموا
عـودوا لحوزةِ دينكم و لْتفهموا كي تغنمـوا

المَقَامَةُ الفئرَانيَّة

حدثنا ابن أبي العينين، قال :

عايْشنا زمانًا كثُرت بل طغتْ فيه الفئران، وأصبحتْ تُنغِّصُ الحياة على الإنسان، وضجَّت بها كلُّ ناحيةٍ ومكان، فراحتْ تسكنُ المراحيضَ وتتسلَّقُ الجدران، وصارت تتساقطُ علينا من الأسقُف، وتقفزُ وتلعبُ فوق الأرفُف، واتّخذتْ من الكتبِ ملجأً ومأوى، تفترشُ أوراقها بأَرْيحيّةٍ ونشوى، تمزِّقُ أوراقها أكوامًا ونِتفًا، ولاتُبقي من سطورها حرفًا؛ فتصبحُ أثرًا بعد عَيْن، وشيْئًا بعد زَيْن، لاتُعير اهتمامًا بسِفْـر اللسان[1]، أو بكتبِ التفاسير والبيان، فكلها عند الفئران سيَّان؛ يأكلون الأوراقَ العتيقة والعُقود، ويخلِّفونها خرائطَ أدلة وشُهود، أسنانُهم كالمقاريض والمناشير، تجعل النوم من العيون يطير! فكم قرضَ الفأرُ نفيسَ الثياب، وخلَّفها هلاهيلَ بلا أسباب، وكم انْدسَّ في سلّةِ الخبزِ الجاف، وباتَ يُقرقضُ فيتعجبُ الأضياف، وأنا أرفعُ الصوتَ وأتحرَّج، وأفكرُ في المأزق لأخرُج!

(١) سِفْر اللسان: معجم لسان العرب.

وكانت تقرضُ أخشابَ الأثاث قرضَا، وبذا أقبلُ مُضطرًّا وأرضَى،

وفي المطبخ كانت له العجائب، والطّرائفُ والنوادرُ والغرائب، فهو يقطنُ من المطبخ الأدراج؛ ليكون قريبًا مما يحتاج، فهناك بقايا الطعام، تُغرِي على الهجوم والالتهام.

وبلغَ من ذكائه أن فطنَ للأسياخ، وتعرّف على المصايدِ والفخاخ! وضعتُ يومًا له السُّمَ الزُّعاف[1]،علَّه يُصابُ بالرُّعب والإرجاف، فعافَه وأكل من الخبز الأطراف، فدسَستُه له في اللانشون، فهم له يحبّون بل يعشقون، فتشمَّمَه تاركًا إيّاه، مُخلِّفًا على مضضٍ ما اشتهاه، فجلبتُ له سُمَّ الكهرباء، فتحرَّاه هربًا بذكاء. وكان أن وضعتُ في طريقه الغِـراء، وكمَنْتُ[2] له بعيدًا في اختباء؛ ليلتصقَ واقعًا في الفـخِّ كما أشاء، فاستلَّ نفسَه كالشعر من العجين، ومرَّ كما يمرُّ في الـزُّبدِ السكين! فشددْتُ من هولٍ شعري، وقلتُ غاضبًا: ليتَ شِعْري!! ولما فرَغَتْ معه الحيلُ والمكائد، ووضعتُ له السُّمَ في كل الموائد، فكان الفأرُ الأذكى والأمهر، وحديثَ الساعةِ والمشهورَ الأشْهَر، ثم حدّثتُ نفسي أنْ بالكهرباءِ أصعقُه، فأنال من روحهِ وأُزهِقه، وإذْ بقَفْلةٍ تحدثُ في البيت،

(١) الزُّعاف: سمٌّ زُعافٌ: قاتلٌ في حِينه.

(٢) كمنْتُ: استترتُ، اختبأتُ.

عانيتُ من جرّائها ماعانيت، وحارَ عقلي معها وضللتُ السبيل، وأبَت بعد جهدٍ طويل، أن ينصلح حالها وتقبل التشغيل!

وكان الفأرُ للقَفْلَةِ سببًا، بلْ إنه أحدثَ بشأنِها العجبًا؛ فقد استوطنَ فوق الدولاب، واتسع المجالُ له والرحاب، فصار ملعبًا يجري فيه ويرتَع ، ويجرجِرُ الطعام فوقه فيأكل ويشبع، وبذلكَ لا تطَاله الأيدي، ويُرقِصُ شَوارِبَه لنا ويُبدي. وبالبحث والتحرّي والتدقيق، والتفتيش والكدِّ والتحقيق؛ ألفيتُه قد قشّـرَ الأسلاك، وأحدثَ القفلةَ والإرباك، وكأنه قد سمع حيلتي فسبقنِي، وأخرَجَ لي لسانه وقهرني. وكان من الدهشة والعجب العُجاب، أنه بالصعقِ الكهربيّ لايُصاب! ولم أدرِ أنه وتيّار الكهرباء، قد صارا أعـزَّ الأصدقاء.

ولما أصابني النّصَبُ والحرج؛ فتحتُ له الأبواب والنوافذ ربّما خرَج!

واستحلَفتُه بالله أن يُغادر؛ فلستُ على حربِه بقادر، وظللتُ على ذلكَ أعدُّ الأيام، حتى تحققتْ بخروجه الأحلام؛ فرقصتُ فرحًا وتنفستُ الصعدَاء؛

بخروج الفأر وانتهاء البلاء، وإذْ بالزوجة في مدخل الدار، تفتحُ الفرنَ وتشعِلُ النار؛ لتدُسَّ الأرزَ وتشوي الأسماك، ففوجئتْ بعبثٍ رأتْه هناك، لم يُطقْ الفأرُ النارَ وحرَّها، حتى قفزَ من الفرن في وجهها؛ فاندلقتْ ـ فزِعةً ـ على ظهرها، فتبعتُه بمقشّةِ البلح ضاربًا، حتى ولَّى خارج الدارِ هاربًا،

قد أعماهُ ضوءُ الشمس وصار يتخبّط، فهوَيْتُ عليه بضربةٍ فقفزَ يتلعبط، وصببْتُ عليه غيظي وغضبي، فتمدّدَ قتيلًا وربحتُ حربي.

يقوُل ابن أبي العينين:

وأمّا عن الفئران في الزراعات، فكانت لهم عجيبُ الحكايات؛ فها هي جحافلُهم تغزو الحقول؛ لتملأَ الأوديةَ والمزارع والسهول، تجري على الجسور كالأغنام، لاتُحصي عـدَّها الأرقام، فصرنا نُوقظ الأطفال فلا تنام؛ خشيةَ الهجوم عليها والاقتحام، فقد أجهَزتْ يومًا على رضيع، فأتتْ على أطرافهِ وأوشكَ أن يضيع، ولولا صراخُه ملأ الآفاق؛ لكانت روحُه في إزهَاق!

وباتتْ الفئرانُ تضعُ صغارَها في الشقوق، وتحيطهم بفراشٍ وثيرٍ يَرُوق، تتسلَّقُ أعوادَ الذرة الفئران، وتنحتُ ـ ببراعةٍ ـ منها الكيزَان[1]، وتتركها عاريةً من الحبَّات؛ فتُصيبُ الفلاح بالحزن والحسرات، وكأن ابنًا له قد مات! وكانت تجُزُّ نبات الأُرزِ جزًّا، وتحُزُّ جذورَه بأسنانها حزًّا؛ فتخلو الأرض بذلك وتبُور، وينقلبُ الحقلُ غمًّا بعد سرور.

وزادت البلوى بارتقاء النخيل؛ للعبثِ بثمار التمر الجميل، فيدبُّ العطبُ في أوصال العراجين، وكأني بهم جانٌّ أو شياطين!

(١) الكِيزَان: جمع كُوز: ثمار نبات الذُّرة وسُنبُلُها.

وانهمكَ الناس يلفُّون البلح في خِرَق؛ حتي لا يَطاله الفأرُ ويخترِق، وطال العنتُ منهم والإيذاء، بأن أكلتْ من الصُّرَر الغذاء، وقضمتْ الأجنّة بعد الإنباتْ؛ فاقفرّت الأرض بموت النبات!

وقد قيل فيما قيل، من نفرٍ ليس بالقليل: أن الناسَ ضنّوا بزكوات زروعهم؛ فسلَّط الله الفئران لردعهم!

يختمُ الراوي: واستقدمَ الناسُ من المدنِ القِطط، وشرعوا يدبّرون للفئران المكائدَ والخُطط، وصارت تُشترى القططُ وتُباع، وذاع صيتُهم في القرى والأصقاع، بيدَ أن القططَ صاحبت الفئران، وعافَتْ أكلها في كل مكان، فانبرتْ فرقُ المقاومة والإبادة، وكانت للجمعيات الزراعية الريادة؛ فانطلقوا ينثرون السّمومَ على الجسور، وتهدِم فوق رؤوسِهم الجُحور؛ حتى زالتْ من الحقول سطوتُهم، واُستُئصِلتْ من البيوت شأفتُهم[1] تلك كانت قصة الفئران، في حقبةٍ فائتةٍ من الزمان، حدثَت معي فعليًا بالحذافير، وجعلت اللبَّ من مكائدها يطير!

أعاذَنا الله من شرورها، وأهلكها كمدًا في جحورها!

وفي شأنها يقول شاعرنا:

(١) استأصَلَ شأفتهم: أزَالَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ، قَطَعَ دَابِرَهُمْ.

لفأرِ الدارِ قد أسلمتُ نفسي فأحرقَ فرحتي و أذلَّ رأسي
أمام الضيفِ يفضحُني بعزْفٍ وما يُخفيه صوتي بعد همسي
فيومًا في المطابخ بعضُ لحمٍ وحينا في الدولاب يرومُ لبسي
وفي الأدراجِ مُتَّكأٌ مُريحٌ كأنه يختبي من حرِّ شمسِ
يقلِّبُ بين صفْحاتٍ قُدامَى فيعلمُ حربَ غبراءٍ و دَحْسِ
و يعلمُ بالعقودِ و ما حَوَتهُ وما خبَّأتُ في يومي وأمسي
وقد حاولتُ صيدَ الفأرِ يومًا فلقَّنني المواعظَ بعد درسي
ويضحكُ لي لأدركَ سوءَ فِعلي وينصحُني أُجرِّبُ بعضَ بأسي
وما نفعَتْ مصائدُ بالسُّمومِ ويومُ الكهرُباءِ حفرتُ رمسي
و فِي الغِيطانِ صوّالٌ خطيرٌ يطيرُ كما الفراشةِ بعد حبْسِ
فيأكلُ ما اشتهى من غيرِ حربٍ و أشكو بعده فقري و نحْسي
فجئنا بالبَسَّاسِ نرومُ قتلاً إذا بالفأرِ معشوقٌ لبَسِّ
يمينُ اللهِ لولا خوفُ ربي لبِعتُ حديقتي وقتلتُ نفسي

المَقَامَةُ الثَّعْلَبِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

لمّا بهظتْ أسعارُ اللحوم؛ المُعلّقةُ والمُجمَّدةُ والمفروم، الجمسيُّ والبقريُّ والجمليّ، والمعْـزُ والضأنُ حرِيّ، وصرنا نتشمّمُها وحولها نحوم، وباتتْ بعيدةَ المنالِ كالنجوم، وأصبح جلبُها مُقتصرًا على المواسم والأعياد، ولايأكلها إلا عِليةُ القوم والأسياد؛ لذا لجأ الناس إلى تربية وتسمين الطيور؛ لينصرفَ عن القصّابِ الجمهور، ويبيتُ اللّحمُ عنده ويبور، فلربّما تقلّ الأثمانُ يومًا والمُهور، ولكن هيهات ثم هيهات! لقد صارتْ كأوراق الكراريس الجنيهات! فماغـلا شيءٌ ثم رخصَ ثمنه. إنه الفُحشُ ـ وربي ـ وهـذا زمنُه!

ومما زاد الطينَ بلَّة، وآلت الكثرةُ إلى القِلَّة؛ ترصُّدُ الطيورِ وتهديدُها، ثم قَنصُها في أعشاشها.

وكان أن تسلَّلَ لدارنا مُتخفيًا (أبو الحُصين[1]) بعد العصر عشيّة يوم الاثنين ، مُتثعلبًا مُتنكّرًا وقت الغَسق[2]، فعدا وغدر ثم فجر وفسَق[3]!

(١) أبوالحصين: حيوان قريب الشبه من الثعلب، ويُقال: كنية الثعلب

(٢) الغَسَقُ : ظلمةُ الليل.

(٣) فسَق: تعدَّى، فجر وطغى.

فقد كثرَ الحديثُ في القرية عن البطِّ والدجاج، فانتفضَ عندئذٍ وهاجَ ومَاج؛ فهذا ما يبحثُ عنه ويحتاج.

رمي عن قُربٍ أُذنيه، يتسمَّعُ مايُحكى حواليه؛ فتلك تقول: سئمتُ من البطِّ البكِّينيّ، وأخرى تقول: ما أروع لحم البطِّ السودانيّ، وهذه: اشتريتُ عشرين كتكوتًا من الصنفِ الوزاريّ، وأرهقني شراءُ الطعام لهم والأعلاف، وتدفئتهم إذْ عليهم من البرد أخاف، حتى كدتُ أُغطيهم باللحاف، وغيرها تتباهى بالدجاجِ البلديّ، وبيضهِ ذي الطعمِ الشهيّ، وأُخرى قد فسقَ[1] دجاجها عن البيض، بكرمٍ من الله وفيْض.

فشحذَ[2] (أبو الحُصين) الذاكرة وبعينٍ لاقطةٍ ماكرة، سجّلَ ما يُقال وما يُحاك، والتقطَ صورًا للمكان هناك.

فلا مفرّ لديه ولامناص، سوى صيدِ فريستهِ والاقتناص، والعَدْو على حظائرِ الطيور، في جُنحِ الظلامِ أو قبل البكور.

أطلقَ حواسَّه الاستخباراتية، تسبقُهم عيناهُ الحادّةُ القوية، وجاء يتشمَّمُ ويتسمَّع، يلعقُ لعابَه ويتضَلَّع[3].

---

(١) فَسَق الدجاج: أي خرج عن البيض

(٢) شحذَ: شحَذ ذهنَه: أعمله، تعمَّق في التَّفكير، بذل جهدًا عقليًّا كبيرًا.

(٣) يتضلَّع: تضَلَّعَ: امتلأَ شِبَعًا أَو رِيًّا.

سُرّتْ عيناهُ الحادةُ كالصواعق، بصنوف الطيور؛ الصامتِ منها والزّاعِق، وقبعَ (أبو الحصين) لهم خلف الجدار، منتظرًا حتى ينصرمَ النهار، يرقُبُ تحركاتهم ويُحدِّد الهُويّات، يميِّزُ كلّ صنفٍ بعلامات، ويرى المشاغبَ منهم والمستكِين، ومَن المُهاجمُ الذي لا يلين، ومَن سَيلْقَى مصيره المؤلم، ومن سيُلجمه الرعبُ فيستسلم، ومَن الذي يتحسّس الجدارَ ولايحلُم.

الدِّيَكةُ تستأسِدُ تعتلِي العُشّ، يسترُ الكُوَّةَ[1] بعضُ القـشّ، تتدلّى أعرافُها الحمراء وتنفشُ الريش، ولا أحدَ يمرُّ بلا تفتيش، تُمُطُّ رِقابها وتقفُ على المخالب، تشحذُ مناقيرها تحسّبًا للمقالب، تصيحُ وتؤذِّن لتقشعَ الغيوم، وكالعادة لا أحد يصحو أويقوم!

وهذا البَطُّ قد عجزت أقدامه عن لحمهِ المُكتنز، يدبُّ بخِفافه مترنِّحًا يرقُبُ ويحترِز، تتلاحقُ أنفاسُه من الدُّهن الرابض على صدره؛ فلا قدرة له على ردْع العدو وقهره، فبات عُرضةً لكل هجوم، لأي غادرٍ يطوفُ ويحوم، وهنالك الدجاجاتُ وقد أثقلها البيض، لطالما عمّرتْ زمنًا تُؤتي مِن فيْض، افترشتْ مُستَدفئةً الأرض؛ في زاوية العشِّ جهة العـرض.

وظل صاحبنا يدرسُ المداخل والمخارج، ويسلكُ المنازلَ والمعارِج، يهزُّ ـ مترقّبًا ـ ذيلَه الطويل، ولاينقطع لُعابُه عن التّسْييل، مُمنّيًا نفسَه بوجبةٍ دسمة،

(١) الكَوَّة ، خَرْقٌ فِي الجدار ، ثَلْمَةٌ ، فَتْحَةٌ ، نافذة للتهوية والإضاءة ونحوهما.

كاملة له لا تقبل القِسمة، حتى إذا ما جنَّ الليل واحلولك الظلام، وأوينا إلى فراشنا لننام؛ فقد أرهقَنا وهدّنا التعب، وأثقلَ أجسادنا الخمول والنَّصَب، وإذ بمعركةٍ حاميةِ الوطيس، أشعلَ جَذْوتها وأذْكاها إبليس، بدأتْ في جُنح الظلام رحاها، ولايعلم إلا الله مداها.

هجمَ (أبو الحصين) شاهرًا أنيابَه، يلْعقُ من شهوةٍ لُعابَه، فشعرنا بدبيبٍ كوقعِ الجِمال، اهتزَّ على إثرِه البيتُ ومَال، كأنه سيقعُ أو أصابه زلزال، ولم ندرِ أن أبا الحصين قد هجم دون إشعار، أو سابق تهديدٍ منه وإنذار، وكنا نحسبُها معركةً للكلاب، عند جارنا مع بعض الشباب.

يقول ابن أبي العينين: وبدأ (أبوالحصين) بالدجاجات، ينهشُ لحمَها طاعمًا يقتات، مُخلِّفًا بقاياها في شتات؛ غضًّا بَضًّا[1] طريًّا، مُكتنزا وطازجًا شهيًّا، ينتزعُ منها الصدرَ والأفخاذ، ولا ملجأ تحتمي به أو ملاذ، والدِّيكةُ تَصيحُ ثم تصيح، ولكن هيهات هيهات في الريح!

وبدأَتْ بمخالبها تقاوِم، تُهدئُ من ثورته وتُساوم، بيْدَ أن أبا الحُصين قد غلَّقَ الآذان، ولم يسمعْ من الدِّيكةِ ماكان، فنتفَ ريشهم ولم يأْبَه بالاستعطاف، ولطمَ الرُّؤوسَ منهم والأعْراف؛ فذُعِر البَطُّ وارتعدَ وخاف، وأناخَ تحت أقدامهِ يلتمسُ المعذرة، مُتذلِّلا يرجو العفوَ والمغفرة: دعنا يا

(١) بَضًّا: رقيقَ الجِلدِ ناعمًا.

سيدي فقد حُزتَ شِبَعًا؛ بعدما التهَمْتَ من الدَّجاجِ عشرًا فسبعًا، فارحمنا نحن الكبار والعجائز، فليس من بيننا البائنُ والمائز، واعلمْ أنّا طعِمْنا غَائطَ الأطفال؛ جَلَّالةٌ نحن فكيف مِنّا تنال؟! وقد أفتى الشيخُ في لحمنا بالحُرمَة، فسخِر وعزم قُدُمًا أن يُكمل جُرْمَه، ولعقَ المتثعلبُ بمكرٍ شفتيْه، وما انْطلتْ تلك الحيلةُ عليه، ثم هزَّ رأسَه ورفعَ قدميْه، وأخذ يقفزُ لأعلى وينُطّ، وينال بأنيابهِ من البَطّ؛ يخْمِشُ[1] هذي، و تلك يقْضِمُها، وأخري قد انتزعَ رقبتها ولم يرحْمها.

ترك الوحشُ ساحةَ المعمعة، وتمنى لو اصطَحبَ باقي اللحمِ معَه!

لكنها بطنُه أضحتْ مُثقلَة، ولم يعُدْ يجد مسْلكًا لخردلة، فهزّ ذيله ثم أَنهى المسألة، واجتاز السطحَ بقفزةٍ واحدة، مُخلِّفًا أشلاءَ على وحشيّته شاهدة. يقول الراوي: ثم قامتْ الزوجةُ من نومها، وهي لاتدري ما خُبّئَ في يومها، ارتقتْ السطحَ وقد عمَّ النور؛ لتضعَ الماء والطعامَ للطيور، وإذْ بها تصرخُ بأعلى صوتها، وتدقُّ بكفّها على صدرها! فلم يُبقِ (أبوالحصين) شيئا لها، ووقفتْ في ساحَةِ القتال، بعدما نال الوحشُ ما نال، تبكي على ما صار بعد ما كان، وتخشى فرحة وشماتةَ الجيران، فانكبّتْ على آثار العدوانِ تُميط، وهي تُنشِدُ من البحرِ البسِيط:

---

(١) يخمِش: خَمَشَ فلانًا: جرح بَشَرَته في أي موضع من جَسدِه.

بنيتُ عُشًّا جَميلا كنتُ أرعَاهُ ... واليوم صارَ حُطامًا قد فقدناهُ

أفنيتُ عمري وما قصَّرتُ في مددٍ ... و من معينٍ زُلالٍ قد سقيناهُ

في كل يومٍ له حظٌّ نجودُ به ... لم ندّخرْ وُسعنا والشَّاهدُ اللهُ

أتى العدوُّ بليلٍ بيتَ عِزَّتنا ... ودمّرَ العُشَّ عمدًا قد رأيناهُ

هاج الدجاجُ وماجوا عند هجمتهِ ... لم يكترثْ للندا والدمُّ مسراهُ

لم يرحم الأمَّ تبكي موتَ طفلتها ... كأنما قد أصمَّ الغدرُ عيناهُ

واليوم أبكي وما في الدارِ من أحدٍ ... ماذا أقولُ و لا ذنب اقترفناهُ

هل صارَ حبُّ القِرَى عارًا بشِرْعتهِ ... أثريتُ مجدًا وهذا ما جنيناهُ

المَقَامَةُ الشِّتَائيَّة

حدَّثتا ابنُ أبي العينين، قال:

تفلَّتَ الشهر الرابع أبريل، ولم يبقَ على مايو إلا القليل، واكتستْ الأرضُ بالقمحِ وازَّيَّنتْ، كالذهب على جيدها وتجمَلتْ، واشرأبّت السنابلُ موشوشات، ثم انحنت بأجنّتها مُثقَلاتْ، تُحاكي قول الشاعر:

(مَلأَى السّنابلِ تنحني بتواضُعٍ .. والفارِغاتُ رُؤوسهن شوامِخُ)

وانتظمَ الفلاحون في الحقول، وجميعهم يصولُ فيها ويجول، تتواتَرُ مِن شفاههم الحكايا، يتسامرون وقد سلِمتْ النّوايا، تُعانقُ مناجلهم العيدان، فتتهاوى للأرض يلتقيان، وبعضهم قد انهمكَ في الدِّراس، تَضجُّ أجولتهم بالقمحِ والأكياس.

الجوُّ صحوٌ والهواءُ ساكن، صفحةُ السماء ناصعةٌ بلا داكن، الشمسُ تُسرِفُ في مُغازَلَة السنابل، والأطيارُ تحلقُ مبتعدةً ثم تتقابل،

الضحكاتُ تتعالى لتُعانقَ الفضاء، يعقبُها الشكرُ الجزيلُ لربِّ السماء.

ومن داري المُتاخمة مكثتُ أُتابع، على سطحها في صومعتي قابعِ؛ سيمفونيةٌ بديعةٌ تتناغَم، الفلاحون يتقافزون كالضراغِم[1]، وأصَواتهم من بعيدٍ كالغماغِم[2]، وإذْ بالسماء تزمجرُ وتُكشِّر، وتُنذرُ بالرعبِ ولاتبشّر، يُدوّي الرعدُ فتنخلعُ القلوب، ويتلوه البرقُ فنرتعِبُ ونذوب، واسودّت الدنيا وأظلمَتْ، وأَغلَقتْ على الشمس وأَحكمَتْ، واكفهرَّت السماءُ ثم غامَتْ، وكأن القيامةَ قد قامتْ، وأمسى الناس يتعجبون، ويشيرون لبعضهم ويتصايحون: إنها ـ وربي ـ القيامة، وهذه علامةٌ تتلوها علامَة!

وفجأة دوّى دويٌّ كأنه القنابل، وانهمرَ الماءُ على إثرها وابل، زخَّاتٌ[3] تدفعُها زخَّات، يعقبُها الثلجُ كُرَاتًا فكُرَات، وفُتّحتْ من السماء الصنابير، وكاد العقل لهول ما أبصرنا يطير، فهجرْتُ صومعتي والأضابير[4]؛ لأرى إلامَ سيكون الحال والمصير.

وعلى مصراعيها فُتِّحت الأبواب، وتواصل الماءُ سيولا بإرْعاب، وأنشأتُ أدعو اللهَ آخذًا بالاسباب: اللهمَّ سُقيا رحمةٍ ولا سُقيا عذاب، اللهم

(١) الضَّراغم: ضَرَاغِمُ و ضَرَاغِمَة، الضِّرْغَامُ : الأَسَدُ الضّارِي الشديدُ، رَجُلٌ ضِرْغَامٌ: شُجَاعٌ ، قَوِيٌّ

(٢) الغَماغِم: جمع الغَمْغَمةُ: الكلامُ الذي لا يَبين ولا ويُوضَّح .

(٣) زخّات: الزَّخَّةُ : اسم مرَّة من زخَّ: دُفْعة من المطر ، هطول المطر بغزارة.

(٤) الأَضَابير: جمع الإِضبارَةُ : الحُزْمَةُ من الصُّحُفِ ، ضُمَّ بعضُها إِلى بعض ، مِلَفّ ؛ حزمة من الأوراق ضُمّ بعضُها إلى بعض.

على منابتِ الشجرِ والظِّرَاب، اللهم حوالينا ولا علينا، وصُبّ اللهم الخيرَ علينا، اللهم لاهدمَ ولا غـرق، وقِنا اللهم الحزَنَ والفَرَق!

يقول ابن أبي العينين: وارتبكَ في الحقولِ الناس، وضربوا الأخماسَ في الأسداس، وتوقَّفتْ الماكيناتُ والدِّراس، ووقفوا حِذاءَ محصولهم مشدوهين؛ أصابهم الخرَسُ فلا أحد يُبين؛ لقد شربتْ الأجولةُ الماء وتمدّدتْ، وطارتْ باقي الأعْوَاد في الهواء وتبدّدتْ، فهذا شتاءٌ ليس ـ البتّة ـ في أوانه، فسبحان الخالق البديع وجلّ شانه!

امتلأت من المطرِ الجداول والسهول، فصلِّ اللهمّ على النبيِّ الرسول، إذ كان يرفعُ يديْه ويقول، داعيًا بالمطرِ على الأوديةِ والآكام؛ فترتوي الزروعُ وترعى الأنعام.

خيّمَ الحزنُ على الموقفِ وساد؛ فليس لكلّ إنسانٍ ما أراد، وهكذا الدنيا تُعطيك ثم تسلِب، تُغالبُها فتُنغِّصُ وتغلب، فما تُتِمُ لأحدٍ فَرْحَه، إلّا وتنكَأ بإيلامٍ جُرْحَه.

يقول الراوي: ونزلتُ وحيدًا في صحنِ الدار، يُقلقني الهمُّ ويقتُلني الانتظار؛ فقد آذَنتْ داري بالسقوطِ والانهيار؛ فهي مبنيَّةٌ بالطوبِ اللبِن لا بالحجَر، ومَعْروشةٌ بالبُوصِ وخشبِ الشجر؛ دَوْرٌ واحدٌ مُلتصِقٌ بالأرض، تُحوطُني الشواهقُ بالطولِ والعرض، سبحانك ربي الواهب الرزّاق، امنحْنا

اللهمَّ الصبرَ إلى يوم التلاق، ثم ارتقيتُ السطحَ ثانيةً أتلقّى الماء، وأجعلُ لكل فَتحةٍ غطاء، أرقبُ الطيورَ بَلَّلها المطر، تَنتفضُ مرتعشَةً والقلبُ منفطِر، وقد صارت حياتُها مُهدّدةً بالخطر، وهي التي أكلتْنا وما أكلْناها، نرتجيها من زمنٍ فما أطيبها وما أحلاها!

وجعلتُ جُلَّ همّي في الأخذِ بالأسباب، والتضرعِ إلى الله بالدعاءِ المُستجاب: اللهم اقضْ عنّا الدين، واجمع الأحبَّة بعد البَيْن، واشفِ اللهمَّ أمي، وأزِل كَربي وهمّي، وباركِ اللهمَّ في أرزاقنا، ويسِّر بفضلك أحوالَنا؛ فقد أساء لنا البشر، وأحدقَ بنا الخطر!

تتابعَتْ دعواتي بلا انقطاع، والغيثُ يهْمِي في البِقاع.

لقد فعَلتُ الأفاعيلَ دون جدوى؛ فقد كان الماءُ الأسرعَ والأقوى، وصار السّقفُ مُثقَّبًا كالغربال، لا يقوى على مجابهةِ الأهوال؛ أرصُّ الأواني تحته لتتلقّى الماء، بيْدَ أن فِعلي هذا أضحى هُراء؛ لقد امتلأت لآخرها القصاع، وطفا على الماء جُلُّ المتاع!

يهطِلُ المطر من السقفِ أصفرَا، كالمِدادِ من البُوصِ مُسَطِّرَا؛ فيصبِغُ كلَّ شيءٍ ويسيلُ أنهُرَا.

أُحاولُ جاهدًا إنقاذَ المراتب، حتى إذا ما جاءت الزوجةُ لاتُعاتِب، وكذا الأجهزةُ والملابس، ولكنها السيول بلا محابِس!

وبلغ اليأسُ ذُروته وأقصاه، فسلّمتُ أمري كلَّه لله؛ فإنّ من خلقَه الله يتولّاه، والذي سيَّر ـ بفضلهِ ـ البِحَارَ والأنهار؛ يُنجينا من هول وأخطار الأمطار، ويُجْلي الغيوم ليضحكَ النهار.

وهذا أحدُهم في الحقول، انبرى يُنشدُ ويقول:

زرعنا القمحَ في وقت التَّنادِي
و أينعتْ السنابلُ للحصادِ
وحَرُّ الشمسِ صافحَ كلَّ حيٍّ
و قد بذلُوا التَّحايا للمُنادي
فقام الناسُ نحو الحقلِ طُرًّا
وحَرُّ الصيفِ يُقبلُ في ازديادِ
فقومٌ بالمناجلِ في ابتهاجٍ
و قومٌ يدرُسون بكلِّ وادي
و لكنَّ السّحابَ لهم تَبدَّى
ولفَّ الشمسَ في ثوبِ السَّوادِ
وأرسلَ منه سيْلا صارَ يجري

ليرسمَ خطَّهُ بين الوِهَادِ
فصارَ الكلُّ يجري نحو أرضٍ
ليُنقذَ ما تبقَّى من حصادِ
فمنهم لاعِـنٌ للسُّحْبِ جاءَت
و منهم من رأى غيثَ البلادِ
فما نفعَ القُنـوطُ الناسَ شيئًا
وفضلُ اللهِ قد عمَّ البوادي
يشاءُ العبدُ ما يَهوَى ويرضَى
ويُنْفِـذُ ما ارتضى ربُّ العبادِ

المَقَامَةُ الاعْتِكَافِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

هكذا تمرُّ الأيام وتجري، وينقضي العمر ولا ندري،

لقد انصرمَ[1] من الشهر الكريم عشرون؛ لذا تبكيه القلوبُ وكذا العيون، تذرفُ عليه الدمعَ الهتُون[2]، فها هي ـ رُويدا ـ تخبُو التراويح، ويعصِفُ الشوقُ بالقلوبِ والتّباريح؛ فاللهم تمكينًا للمستضعفين، وبُرْءًا لكل جريح!

لم يبق سوى العشْرِ الأواخر، من الشهر الفضيل الزَّاخر، نأملُ فيها تعرُّضًا للنَّفحَات، راجين من الله رفيعَ الدرجات، وبلوغَ الفراديس[3] من الجنّات!

ولّما عقدْنا العزمَ على الاعتكاف، وبيّتنا النيّةَ بلا اختلاف، طلَّقنا الدنيا ثلاثًا، وهجرْنا مضاجعًا وأثاثًا، وتركنا معافَسة[4] الزوجاتِ والأولاد،

---

(١) انصرمَ: ذهبَ وانقضى.

(٢) الهَتون: عَيْنٌ هَتُونُ الدَّمْعِ: غَزِيرَةُ الدُّمُوعِ.

(٣) الفراديس: جمع الفِرْدَوْسُ: اسمُ جَنَّةٍ من جنَّات الآخرة، وهي مسكن الأبرار والصالحين.

(٤) مُعافَسَة: المُداعَبة والمُمارَسَة؛ يُقَالُ: فُلَانٌ يُعافِس الأُمور أَي يُمارِسُها ويُعالجها.

وملاعبةِ البنين والأحفاد، وخلَّفنا وراءنا صخبَ الشوارع، وأقبلْنا على الكريم نُسارع.

وضعْنا الأغراضَ في الحقائب، وأعلمَ الحاضرُ منا الغائب، ووَلجْنا بيتَ الله العامِر؛ طواعيةً وتلبيةً للأوامر، وماشدَدنا من أجل ذلك الرحال، واكتفينا بالحِلّ[1] لا التِّرحال؛ فلا تُشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: الحرام والنبويِّ والأقصى الأماجِد، فرُبَّ زاويةٍ لا تلفتُ الأنظار، تحوي العُبّادَ والنُسَّاكَ والأحْبار، ينظرُ الله إليهم ويَعُدُّهم من الأخيار.

وكان مسجدُ الرحمةِ الهدفَ والمقصِد، فهذي نفوسنا تهفو إليه وتقصِد؛ إذْ هو من دُورِ الحيِّ قريب، وإلى نفوسنا جدُّ حبيب؛ نجدُ فيه الفطرةَ النقية الصافية، تُرفرفُ عليه روحانياتٌ ضافية، وروّاده يتوافدون في الصلوات، لايعرفون التحزُّبَ والنَّعرات، لاتكلُّفَ فيه ولا إغراق، يسودُه الوئامُ وجميلُ الأخلاق، أكتافُنا فيه سواء والسَّاقُ جنبَ السَّاق.

يقعُ على مرمى حجرٍ من نهرِ البوهيّة، تتلألأُ جنباتُه بوجوهٍ نورانية، يرتادُه بُسطاءُ فلا أحد بيننا مائز، يبتغون إيمانًا كإيمانِ العجائز، كما قالها الصدِّيقُ أبوبكر الفائز.

ولقد مَنَّ الله علينا بأجهزةٍ للتكييف، تقينا لفحَ الهاجرةِ بالهواءِ اللطيف.

حططْنا الرَّحلَ وأخْلَيْنا القلوب، والجمعُ يتضرَّعُ إلى اللهِ يتوب، ووجوههم تكسوها صُفرةٌ وشُحوب، نرجو الرحمةَ وغُفرانَ الذنوب.

(١) الحِلِّ: الإقامة، فلانٌ حِلٌّ ببَلد كذا: مقيمٌ فيه.

ضربْنا في مؤخرةِ المسجد الأخْبِيَة[1]، وأوْدَعناها حوائجَنا والأغطِية، واستعنّا بالله على الطاعة، ابتداءً بصلاةِ الجماعة.

وقفَ المُصلون بين يدي الله الواحد، يُقرّون مُذعنين فلا جاحد، وما بين قائمٍ وراكعٍ وساجد، كالحمائم تزدانُ بهم المساجد، يُصلّون تحيةَ المسجدِ والنَّوافل، ولامكان بينهم لمتكاسلٍ أوغافل، ثم تعالى صوتُ المُؤذنِ يُعانقُ السماء؛ مُعلنًا موعدَ صلاة العشاء، فانثالتْ السكينةُ على القلوبِ رُواء، ثم فاحَ عبقُ التراتيلِ والتسابيح، وحملتْنا أجنحةُ الوَجْدِ[2] إلى التراويح، وها هو الإمامُ يُحبِّرُ[3] القرآنَ تحبيرا؛ يقرأُ مُفسِّرًا آياتهِ تفسيرا، يُنذِرُ بآيات العذابِ فترتَعِدُ وتقشعِرُّ الأبدان، ويبشِّرُ بآياتِ الرحمةِ فتتراءَى لنواظرنا الجِنان، وتحلِّقُ القلوبُ تهيمُ مُتعلِّقةً بالرحمن، تذرِفُ المدامعُ خشيةً من الله وخشوع، وتنكسِرُ الجوارحُ للخالقِ في خضوع، تتنزَّلُ الملائكُ فوقنا وتطوف، وتسطّرُ في الصحائفِ من الحسناتِ أُلُوف، فما أعظم الكريم المنّان، والرحيم بعباده الحنّان!

---

(١) الأخبيةُ: جمع: الخِبَاءُ: بيتٌ من وَبَرٍ أو شَعر أو صُوف ، يكون على عمودَيْن أو ثلاثةٍ، و الخِبَاءُ المنزل.

(٢) الوَجْدُ: الشَّغَفُ، الشَّوق، الْحُبُّ

(٣) يُحبِّرُ: يُحسِّن، يُزيِّن، يُجمِّل.

يقول ابن أبي العينين: ومابرِحْنا معتكفَنا نلتمسُ ليلةَ القـدر؛ عسانا نحوزُها فيسمو عند الله القـدر، وتطهُر القلوبُ من الحقدِ والغدر.

والليلةُ سَابعةٌ بعد العشرين، وِتْريّةٌ يجرِفُنا إليها شوقٌ دَفين.

اخْتلَى كل مُعتكِفٍ بنفسه، يناجي ربه ويسمو بأُنسِه، ولهَجتْ الألسُنُ ضارِعة، وترقرَقت العيونُ دامِعة، واقشعرَّت الجلودُ خاشعة؛ هذا يدعو بالرزقِ الوفير والبركة، وذاك يدعو بالشفاءِ والحركة، وآخر يكسوه الندمُ والوَجَل، ويخشى أن يُوافيَه معَ الذنوبِ الأجَل، ورجلٌ بلّلتْ الدموع لحيتَه، على زمنٍ كانت النساءُ فيه قِبلتَه، عسى اللهُ أن يقبلَه ويمحو زلَّتَه، ويُواري بالغفرانِ سَوْأتَه، وشابٌّ غرقَ في المعاصي وأسرَف، وقاربَ على الهلاكِ وأشرَف، فانبرى جانبًا وأخذَ ينْتحِبْ، يسُوقُ لله الندم ويصطحِب، توبةً نصوحًا وعزمًا لايلين، وأسفًا على مَا انقضى مِن سنين، وهذا شيخٌ يلَمْلِمُ شَفتيْهِ الواهِنة، بدعوَاتٍ من القلبِ رَاهِنة، ترتَعِشُ من ضَعفٍ كفَّاه، وتَسحُّ بالدموعِ عيناه، يُناجي ـ مُؤمِّلاـ مَولاه، قائلًا: لا إلهَ إلا الله، أمِتنا عليها يا‌ألله!

ووالدٌ يدعو لغلامِه الوحِيد، بالتوفيق والعمرِ المديد قائلا: اللهمَّ اكْسُ عظامَه لحمًا، وأَلهِمْ عقلَهُ فَهْمًا، ولقِّنه معرِفةً وعِلمًا!

وآخرون تحلَّقوا في حلْقات، يُرتّلون كلامَ الله في إخْبات، آياتٌ تتبعُها آيات، تحوطهم السكينةُ وتتنزَّلُ الرحمات، ثم انقضتْ مُهلةُ الذِّكرِ المُطلَق،

وتُرِك للجميع العَنانُ وأُطْلِق، إلى أن أشَارت عقاربُ الساعة للواحدة، بعد انتصافِ الليلةِ الخالدة، فانتفضْنا ننْصِبُ الأقدام، يحدُونا عزمٌ وإقدام، ونُودِيَ لصلاةِ التَّهجُّد، والقنوتِ لله والتعبُّد، وفي هدأةِ الليل كان لكلٍّ مع الله حال، وجباهُنا في الأرض تسمُو بالسؤال، نأملُ القُربَ إلى الله بالسجود، نبتهلُ إلى الله الواحدِ المعبود. ركعاتٌ تتلوها ركعات، والزمنُ لاتحُدُّه الساعات، والدعاءُ يصَّعَدُ سامقًا للسماوات، إلى أنْ سبقتْ أذانَ الفجرِ ساعة، فنُودي للسُّحورِ في الجماعة: أقبلوا فإن البركةَ في السُّحور؛ أملا في الله بعظيم الأُجور، وامتدّتْ الأيدي إلى الطعَام، تتخلَّله المُلَحُ وطريفُ الكلام، نأملُ لبلادنا الخيرَ والسلام، يعلُو وجوهَنا الرضا وتملأُ القلوبَ القناعَة؛ فالدنيا ساعة ومتاعُها لُعَاعَة[1]، ثمّ طافَ علينا بالشاي الشيخُ (ياسـر)؛ سيِّدُ القوم ذو الحديثِ الآسِر، شايٌ ثقيلٌ خفيفُ السكر، نرشفُه وفي نعم الله نتدبَّرُ ونتفَّكر، ثم دارَ علينا الصبيةُ بالقُلَل؛ نشربُ زُلالا فتزول العِلَل، ونرتوي من ظمأٍ ونُطفئُ الغُلَل.

قام بعضُنا ليُجدِّدَ الوضوء، وبفضل الله يُقـرُّ ويبُوء.

أذانُ الفجْـرِ يُجلجلُ في الفضاء، يُعانقُ صياحَ الدِّيَكةِ في ألَقٍ وبهاء، والملائكةُ تحلِّقُ بأجنحتها في السماء.

---

(١) لُعَاعَةٌ: اللُّعَاعَةُ : البقيةُ اليسيرةُ من كل شيء، الدنيا ساعة، وَمتاعها لُعاعة : أى قليلة البقاء كالنبْت الأخضر.

ذابَ بين الناسِ المعتكفون، يلتمسون الصفَّ الأولَ فيقتربون، المسجدُ يكتظُّ بالمصلين، تنخلعُ القلوبُ من قولِهم: آآآمييين.

يقول ابن أبي العينين: وإذْ بالسماء فوقنا لامعة صافية، والنسائم عليلة تبشِّر بالعافِية، يعقبُها زخَّاتُ مطرٍ خفيف، فسبحان ربّي الرحيم اللّطيف، وكأنها لليلةِ القدْرِ علامات، فاللهمَّ تقبّلْ صلاتنا والدعوات، وأصلحْ نفوسَنا واغفـر الزلّات، إنكَ سميعٌ وللدعاءِ مُجيب، ولطفُكَ بنا يا إلهي قريب، ورجاؤُنا فيك ـ أبدًاـ لن يخيب، ثم شرَعنا نُودّعُ الشهرَ الكريم، مُتوسِّلين إلى اللهِ الحليم:

أطفأتَ قلبي بعد طولِ تألُّقي ... وقصمْتَ روحي بعد عذبِ تعلُّقي

و رحلتَ يا خيرَ الكِرامِ مُودِّعًا ... هل يا تُرى من بعد عامٍ نلتقي ؟

ستعودُ حتمًا للحياةِ و إنّما ... من يضْمنُ العمرَ الطويلَ فيرتقي

بك عُلِّقتْ آمالُ روحي وانتَشتْ ... وعلى ضفافِك غَرْسُ كلِّ تشوُّقي

و تنزَّلتْ فيك السَّكينةُ يا تُرى ... سنعودُ يا رمضانُ عند المشرقِ؟

تبكي القلوبُ و دمعُها مُتحدِّرٌ ... بالله مَهْلا في وداعِك وارْفُقِ

قصَّرتُ فيكَ و فضلُ ربّي واسعٌ ... كي يقبلَ الدمَعَ الهَطُولَ بخافِقي

يا ربِّ إنّي قد أتيتُك تائبًا ... فاقبلْ إلهي قلبَ عبدٍ مُحرَقِ

وامنحني يا أللهُ نورَ هدايـةٍ ... و ارحمْ فؤادي أنتَ ربي خالقي

المَقَامَةُ المُشَخِّصَاتِية

حكى ابنُ أبي العينين، قال:

حلَّ على بلادنا زمانٌ كثُر فيه الزورُ والبهتان، ورخصَ فيه أهلُ الفضل من بني الإنسان، وانتشر النفاقُ بل طغى وساد، وأينعَ البغيُ وعمّ الفساد، وبرزَ المُشخِّصاتية في الآفاق، وجاهروا بالمعاصى وسوءِ الأخلاق، فعنهم خبِّر وحدِّث ولاحرج؛ فها هي أموالهم تربو كلما دخل أحدهم أوخرج، فلا يأبهون لعلاوةٍ أو ينتظرون الفرج. أجورُهم لاتحدُّها الأرقام، ولاتخطرُ على البال في الأحلام. يتقاضون من الجُنيهات الملايين، لحلقاتٍ لا تتجاوز الثلاثين؛ في برامجَ تافهةٍ ومسلسلات، ومقالبَ سمجةٍ[1] وإعلانات.

لهم فى الصيف والخريف، الجوُّ المُكيَّف اللطيف، وفى الربيع والشتاء، وثيرُ الفراشِ وباهظُ الكساء، مصالحُهم أولا حيث الوساطة والـ (كُوسَة)، وكرامةُ البسطاءِ دونهم مدهوسة؛ فهذا أحدهم قد ألهَى الناس فى رمضان، عن صلاة التراويح وقرآءة القرآن، حيث كانت البلطجةُ تتصدرُ الصورة،

(١) سَمِجَة: السَّمِج: القبيح الذي لا ملاحة له، خالٍ من الظُّرف غير مستحسن.

وحاكى الشباب شخصيته المشهورة، وشرعوا يقلّدون حديثها الممجوجَ وهيئتها المسعورة، وضجّ المتفرجون بالفرحة في ملحمة، ساعةَ برّأهُ القاضي في المحكمة، وانصرفتْ إليه الأنظار، وأصبح قدوةَ الأطفالِ في الليل والنهار.

وآخرُ حباهُ الله العمرَ المديد ، فلا جدوى يضيفُها أو يزيد، غير أن اسمه كان قد جابَ الآفاق، وعاش في الهزْلِ فما فاق ولا استفاق، لايرضى بالأجرِ القليل، ويعدُّ نفسَه كأبي الهولِ والنيل، يُقبِّل ويحتضنُ الحسناوات، كأنهنّ ملكُ يمينه أو له زوجات، في أدْوار لأفلام ومسرحيّات!

وآخرون بالغوا في انتهاك الحرُمات، في أفلامهم الساقطةِ والمسلسلات؛ فلم يراعُوا للشهر الفضيلِ حُرمة، بل غالوا في السفورِ وخرابِ الذِّمة، وصار العُرْيُ لدى بعضهن أحدثَ الموضات؛ لإغراء الشبابِ وإفسادِ البنات، بإظهار لحمهم المُبْتَذلِ الرخيص، فيُفْتَنُ بهنّ كلُّ فَسْلٍ[1] حريص، من ضعاف النفوسِ وعديمي الأخلاق، ولو أُشْرِبوا النصحَ في تِرياق!

وإنْ ضاقَت ملابِسهنَّ فإنَّها تشِفُّ وتصِف، فيخيبُ ويخسر رَائيهم ولاينتَصِف.

ولقد جعلَهم الناسُ سادةَ هذا الزمان، وأنزلوهم خيرَ المنزلِ والمكان، فصاروا ضيوف المرائي والإذاعات، وحديث الشوارع والمنتدَيات، بل

(١) فسْل: الفَسْلُ من كل شيءٍ: الرَّذل الرديء، رجلٌ فَسْلٌ: لا مُرُوءة له.

ومحط أنظار الفقراءِ في الحارات، وأُوفدوا إلى المحافل الدولية، في احتفالياتٍ ومُؤتمراتٍ عالمية، وحُشِدت بهم الطائرات؛ لحَثٍّ وتشجيع المنتخبات.

وهم الذين لم تُقبلْ قبل لهم شهادة، وكانوا دائما في المؤخرة لا الريادة، فأذلهم القضاةُ وحطُّوا من شأنهم؛ لاخْترامهم المروءةِ وتَبذُّلِ[1] هِندامهم، ولكونهم يمثّلون فيكذبون ويحتالون، ويضحكون بملءِ أشداقهم ثم يبكون، فكانوا كالمسوخِ[2] والأراجوزات، ومُهرِّجي السيرك والبهلوانات.

يقول ابن أبي العينين: فهذا أحدهم تقيٌّ ورِع، يُبالغُ في الخشوعِ ويخترِع، تراهُ في زِيّ خامسِ الخلفاء، متصنِّعًا الزُّهدَ والتقشُّفَ والحياء، حتى يُشعِرَكَ بأنه عمر بن عبد العزيز، فلا تستطيع التَّفريقَ بينهما أوالتمييز، وأنه قد ملأَ التلفازَ خيرًا وعدلًا، وأفاضَ على الزملاءِ علمًا وفضلا، ثم ينسلخُ من عباءته على استحياء؛ ليرتدي ثوبَ العاشق الولهان، في دَورٍ آخر في غير المكان، فترتمي إحداهنَّ في أحضانه؛ ليبثَّها لواعجَ أشواقه وحنانه، وربّما انْدَسَّ معها في فراش، دونما رهبةٍ أو اندهاش، وقد تكونُ زوجةً لأحد الدَّيايثةِ[3]

(١) تبذُّل: تبذَّلَ: تَدَنَّى في سلوكه وخُلُقه ، ترك الاحتشام والتصوّن ، تميل إلى التَّبذُّل في ملابسها.

(٢) المسُوخ: جمع المسْخُ: القُبْحُ، مسَخَه اللهُ: حوَّل صورتَه إلى أخرى أقبح منها ؛ شوّه صورتَه، أفقده طبيعتَه الخاصّة.

(٣) الدَّايثة: رَجُلٌ دَيُّوثٌ : رَجُلٌ لا يَغارُ على أَهْلِه وَلا يَخْجَلُ ، الدّيُّوثُ من الرِّجال : القَوَّادُ على أَهلِه، والجمع: الدَّايِثة.

الواقفين، ولاينبس بكلمةٍ أو حتي يُبين، وهذا آخرُ يسوقُ المواعظَ والحِكمْ، وهو في بيتهِ ما ربَّى وما حكَم، يتسكعُون بفعل الخمور في الحانات؛ يشربونها مجاهِرين وهي من المُحرّمَات، وقد أسمَوْهَا بغير المسمَّيات!

لقد أفسدوا العقول وشوَّهوا التاريخ، بأهوالٍ تجعلُ الوِلدانَ تشيخ، وهذا أُنموذَجٌ ومثال، فقل لي بربك: أحرامٌ هوَ أم حَلال؟!

إنه هارونُ الرشيد: الخليفة العباسيُّ ذو الرأي السديد، عامًا يحجُّ وآخر يجاهد، يخافُ الله ويفي إذا واعد، يخاطبُ السحبَ الماطرة، بيقينٍ وكلماتٍ عاطرة، يحفرُ قبرَه وينامُ فيه، يخافُ الله ويتَّقيه؛ فانظر كيف شوَّهه الأباعد، بتاريخٍ مُدلَّسٍ مغشوش، وطمسوا صورتَه بالغبَشِ[1] والرتوش، إذْ جعلوه للنساءِ زيرَا، وما استحقَّ ـ بزعمِهم ـ أن يكون وزيرَا.

وهذا آخرُ قد تلبَّسَ دَورَ القاضي الإمام، أو الفارس البطل الهمام، ثم ما يلبثُ أن يخلعَ الحُلَل، ويحتسي الخمورَ ويُحدِثُ الخَلَل، فكيف ينصحُ ثم يُصلِحُ ويُداوِي العِلَل؟!

ترى بعضَهم في كلِّ زاويةٍ كالرزايا، يُقحِمون أنفسهم في كُبرياتِ القضايا؛ فهم السَّاسةُ والقادةُ والمصلحون، وفي كلِّ وادٍ كالشعراء يهيمون، غير أنهم لايطالهم استثناء، كما خصَّ اللهُ ـ سبحانه ـ الشعراء.

---

(١) الغبَشِ: شِدَّةُ الظُّلْمَةِ وَسَوَادُهَا، بقيةُ الليل وظلمةُ آخره.

لاعلمَ لديهم فيسمو بهم، والجهلُ مُطبقٌ على جُلِّهم، على كل الموائدِ ـ بنهمٍ ـ يأكلُون، ولكل مائزٍ في القوم يُداهِنون ويصَفقون، ترعرعَ فى أوساطِهم النفاق، وبزغَ نجومُه فى الآفاق، فهذه تعتلى منصاتِ الإفتاء، أمام عمائم الأزهرِ سواءً بسواء، وتنبري تحدِّثُ ـ جاهلةً ـ عن النبيّ وتخطُب، وكأنها بليلٍ تسيرُ وتخْطِب؛ لتخرجَ علينا بدينٍ جديدٍ ماعَهِدْناه، وشرعٍ فَريدٍ ـ من قبل ـ ما رأيناه، ومزاعمَ واهيةٍ بالوسطِيّة؛ فالرقصُ في حدْسِهم جهادٌ وتضحية، ومَن ماتتْ منهنَّ فهي شهيدةٌ عليَّة، بيْد أن الدين من أباطيلهم برَاء، إذْ كل ما يدَّعون هُراءٌ في هُراء!

يقول الراوِي: وبينما يُهانُ العلماء وتضَيقُ معايشهم، أوتسحقهم الغُربة وتضيعُ مكانتهم؛ يُكرَّمُ المُشخِّصاتية ويُقرَّبون، ولجوائزِ الدولةِ وعطاياها يحصُدُون، وفي خارجِ البلادِ وعلى نفقتها يُعالجون، بينما يقبع غيرهم في المشافي بلا اهتمام، تنهشُهم الأوجاعُ وتفتكُ بهم الأسقام، ولقد بَاتَ انتقادُهنَّ جريمةً تسْتوجِبُ التقاضي، ولهم الظَّفَرُ والنَّصَفةُ[1] من القاضِي، وبِذا يحيا العدلُ في بلادي!

هذا تاريخهم فسطِّروه ـ إن شئتم ـ كتابًا، واذكروا كم غضُّوا الطَّرفَ عن العِرضِ وأغلظُوا الإهابا، وبات ذكرُهم ممْقوتًا فى كل نَاد، وكسا وجوهَهُم الصغارُ والسواد؛ بقدْرِ ما أفسدُوا البلادَ والعباد.

(١) النَّصَفَةُ: الإنصافُ؛ عدلٌ ونزاهةٌ في الحكم، وعدم تحيُّز.

فاسمعُوا من شَاعِرِنا النُّصْحَا، إذْ يقولُ بالعرَبيةِّ الفُصْحَى:

لا تسمعُوا صوتَ الخبيثِ الآتي عقدُوا العُزوم على قبيحِ وفاتي
قد عاهدُوا الشيطانَ ألا يتركوا للحقِّ نورًا في لظَى الظُّلماتِ
قد زَيَّفوا التاريخَ عمْدًا إنهم جُنْدُ الهَوى و مُكذِّبو الآياتِ
قد شوَهوا جُلَّ الجمالِ بأرضِنا بمسلسلِ الأوْهامِ والخَلقاتِ
يتبادلُون العُهرَ جهْرًا بالخَنا والقبحُ صَارَ بأشهرِ الشاشاتِ
نشَروا التَّفاهَةَ بين جيلٍ مُسلمٍ ليضيعَ بين مرَاتعِ القَنواتِ
من قالَ أنّ الفنَّ مَحْضُ وقَاحةٍ في سَاحةِ التزييفِ والقُبلاتِ ؟
الفنُّ نبضٌ للحياةِ ويرتقِي بالذَّوقِ حين بلاغةِ الكلِماتِ
هو أن نعُودَ لخيرِ جيلٍ في الورَى بتَمَثُّلِ الأخْلاقِ والصَّلوَاتِ
هو أن نقولَ لمن يَزيغُ ويفترِي إنّا أُسُودُ الحَقِّ في الخَلَواتِ
نحن الذين عَـلَوْا بدينِ مُحَمدٍ و العِـزُّ عند تتابُعِ الخُطُواتِ

المَقامَةُ المَكّاويّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

بيْنا أنا أتجهّزُ للعيد، وألتمسُ من الملابس الجديد، قادمًا من عند الحائكِ[1] (عصام)، ذلك المُتقِنُ المُبدع الهمام، في قريته (المِنا صافور) وقد يسَّر الله لنا عنده الأمور، يُقلُّني زوجُ ابنتي أبو مصطفي على الهنديّة، دراجته البوكْسَر البخارية، من وصلة (طحا المرج) إلى نهر البوهية، وإذْ بالعائلةِ عند المسجد الكبير تتجمَّع، وقد تهيَّأ الصغيرُ والكبير وأزمَع، ذهابًا إلى ميت غمر العامرة، الساهرة الصاخبةِ الساحرة، وقام (المكاكِوة)[2] ونهضوا من سُبات، وزحفوا مثنى وفرادي وزرافات، تُقلُّنا من البوها الحافلات؛ لمشاركةِ فرحةِ عميدِهم، وفخرِ وتاجِ رؤوسهم، العمّ الحاج عبد الباسط، زادَه مِن فضله المُنعِم الباسط، في حفل زواج مِسك الختام، مصطفى الفتى النجيبُ الهمام، ثمّ نزلنا في وادي الكرمِ والجود، والحفاوةِ التي لاتحدُّها حدود، وكنّا بفضلِ الله صائمين، تسعًا من ذي الحجة متتابعين، ولكنّا لبَّينا مُجيبين، دعوةَ الكريمِ مُحبّين.

---

(١) الحَائِك : من حرفته الحياكة ، وهي نَسْج الثِّياب ونحوها.

(٢) المَكَاكِوة: عائلة المكاوي.

وتكأكأَ القومُ تحدوهم[1] السعادة، إلى منزلِ الريادةِ والسيادة، فما أروعَ الاستقبال وما أكرمَ الوِفادة، ونُودي في الصائمين أنْ هُبُّـوا، لدعوةِ الأجاويدِ ولبُّـوا، فالموائدُ قائمةٌ وممدودة، والسُّمُطُ[2] مبسوطَةٌ ومشدودة، غير معتادةٍ ولا معهودة؛ لايرى الأولُ عليها الآخِر، وكأنها الخضمُّ الزاخـر، ورُصَّت على الموائد الأصناف، وكل دقيقةٍ يُلحقُ بها ويُضاف، أطباقٌ تتلوها أطباق، ولعابُنا يسيلُ باشتياق؛ فرائحةُ الشّواءِ تغازلُ الأُنُوف، تُنادي النَّهِمَ وتُغري الملهوف؛ فمن اللحوم مبسوطٌ وملفوف، والطّاهي يحملها بيننا ويطوف، ويجودُ بسخاءٍ بين الصفوف، تتلقّفها القلوبُ قبل الكُفوف، مَصُونةً في رقائق الألمونيوم، بجوارها أصابعُ اللحم المفروم، غليظةً ممدّدةً لاتقوى فتقوم، ومن اللحومِ ما رُصَّ على الأسياخ، شهيَّة مُتبَّلة هي لحومُ الفراخ، والخبَّـازُ يرمي الخبزَ في سرور، ليخرجَ شهيًّا كالفطير مِن التَّنور[3]، والوفـودُ تترى ويتوالى الحضور، لايُحصيها العـدُّ والأرقام، أفواجٌ تُذهِبُ بالأحلام! إلّا أنَّ كرمَ الرجلِ زاد وغطَّى، ومنحَ بلاحسابٍ فأجزَلَ وأعطى؛ أعطى عطاءَ من لا يخشى الفاقـة، دامت راياتُ كرمهِ عاليةً خفَّاقة؛ فالأطعمةُ على الموائدِ تلتَمعُ

(١) تحدُوهم: تدفعهم وتحثُّهم.

(٢) السُّمُطُ: جمع: السِّماطُ : ما يُمَدُّ لِيُوضَعَ عليه الطعامُ في المآدبِ ونحوِها.

(٣) التَّنُّور: الفُرن يخبز فيه، والجمع تَنَانِيرُ.

وتتغَنَّج[1]؛ العربيُّ منها والغربيُّ المُفرْنَج، وعن المُشهِّيات والمُقبِّلات حدِّث ولاحرَج، يطرحُها الطُّهاةُ كلما دخل أحدهم أو خَرج، ثم الحُلو فاقت روعتُه الخيال، ولم نجد له مسلكًا أو حتى مجال!

فهذا الرائعُ (محمود أبومعاذ)؛ بشوشٌ ودودٌ قد فاقَ الأفْذَاذ، ما إن ترفع يدكَ له بطلب، إلا وأسرعَ يُلبّي مَن طَلَب، فأذْهلَنا ونال مِنّا الدَّهْشَ والعجب، وواسطةُ العِقد (إبراهيم)، أجبرني بكرمهِ على فتح (الريچيم) فزاد من عطاياه ومنَح، وأتى على المغاليق وفتح، ثم العريسُ الجميل (مصطفى) فارسُ الليلةِ وأميرُها المُحتَفى، بارك الله له وبارك عليه، وبارك فوقه وتحته وحواليه.

يقول الراوي: لقد كانت ـ وربي ـ ملحمةً للكرمِ مكاوية، شابَهَت بل فاقَت الطَّائية!

وبعد أن امتلأت منّا البطون، وثقُلت الأبدانُ وجحظت العيون، نزلنا سلَّمًا من خمسِ درجات، وإذْ بنا في الجنة بل جنّات؛ مجلسٌ في حديقةٍ غنّاء، عليلُ الهواءِ وسقفُه السماء، يضجُّ بعِليةِ القومِ والرفقاء، ومندوبي الشركاتِ وكبار التجار، ومسئولي المصانع والأخيَار، وكان للعائلةِ فيه حظٌّ وفير، ومقامٌ رفيعٌ ليس له نظير.

---

(١) تتغَنَّج: تتدَلَّل وتتزَيَّن.

أُذِّنَ في المجلس لصلاة العشاء، فنهضنا على الفور نلبّي النداء، وأمَّنا الشيخُ أبوذَرٍّ محمود، بصوتٍ ليس لعذوبته حدود، وقرأ من سورة (الرحمن) فتنزَّلَت السّكينةُ لتغشى المكان، ثم تآلفت القلوبُ وتجمّعت، والتقت الأرواحُ وتمتّعت؛ جِلساتٌ ماتعة طابت لها النفوس، تروحُ بيننا وتجيءُ الكؤوس، بالباردِ والساخن وما لذَّ وطاب، والأحاديثُ تحلو وتُسرَدُ بإطْنَاب[1]، وكل إلفٍ لإلفِه يروم، وعميدُنا قمرٌ والشبابُ نجوم، يُشاطرهُ الفرحةَ أخوهُ عمُّنا الحاج (إبراهيم)، وضَّاءُ المُحيَّا له مِنّا السلام والتعظيم، ورحم اللهُ ثالث الثلاثة، أستاذنا أبو محمد (محمود المكاوي)، فعنه يطولُ الحديثُ وتَعذُبُ الحكاوي، ومازالَ أبومعاذ يطوفُ بيننا ويحوم، ينثرُ البسماتِ فيبدِّد الهموم، يُحيّي الضيوفَ ويفيضُ من الكرم، يرفعُ من شأننا ويسمو للقمم، فهو جديرٌ بكل احترامٍ لاجَرَم.

يقول ابن أبي العينين: وكان من قسْمي أبو ذَرٍّ (محمود الزيني)، أحببتُه في الله وهذا يقيني، وأبوأحمد الشيخ (مصطفى المكاوي)، أزهريٌّ ألمعيّ يقينُه بالله يُداوي ، صبَّ الله عليه الخيرَ صبّا، ما إن تُخالطهُ إلا وينَل من قلبكَ حُبّا، وما عهدناه إلا محتسبًا صابرًا، يدوسُ المحنَ قاهرًا وعابرًا، وجَاورَنا شيخٌ يُدعى (مُتَولِّي) فكان من قدَرِنا أن نضحكَ ونُحلِّي؛ حُلوُ الكلامِ بل فاكهةُ المجالس، أكرِم بالرجل فنِعم مَن تُجالس!

(١) إطناب: أطنب في الكلام أو غيره: أطال فيه وبالغ، وأن يزيد اللفظ على المعنى لفائدة.

ثم ساقَ لنا الرجلُ شعرًا في مدحِ الرسول، وطرائفَ ومُلَحًا[1] وأسهبَ يقول، وجالسَنا (مصطفى عبد الشافي) أبو نور، فأضفى رائعَ الأنس والحبور، وطيِّبُ القلبِ أخي (عماد) تواضعٌ جمٌّ، حُبٌّ ووِداد، ثُم (محمد أبوزيد) أبوبـلال، زَينُ الرجال كما الهلال، وأبو مصطفى أخي (إسماعيل) بسّامُ المُحيَّا الشهمُ الأصيل، نسلُ الأطهارِ والفرعِ الحميد، أبناءُ العلَمِ الحَبْرِ[2] (الحاج أبوزيد) سحائبُ الرحمة عليه تترى[3]، ولُقيا اللهم به في الدار الأُخرى!

ثم التفتنا فجأةً حيث الخيول، ترقصُ في خُيلاءَ على قرعِ الطبول، والعريسُ يمتطي إحداها ويُمسِكُ الزِّمام، كفارسٍ يقودُ في زهوٍ وإحكام، والصحبُ يلتفون حوله في حلقات، يصفقون وتتعالى الضحكات، وهذا (عمرو أبوزياد) قد برع في ركوب الخيل وأجاد، بورك الشبابُ جالبُو الإسعاد، ودامت الديارُ بالأفراحِ عامرة، وبالمسرات مبتهجَة ساهرة، ودامت شجرةُ العائلة تضربُ الجذور؛ لتورقَ الأغصانُ ولا تبور، وتُثمر أجيالًا في تروس الحياة تدور، ثم أنشأتُ أسرَحُ بخاطري وأجول، والقومُ أمام عينيّ مثول، وعنقي إلى السماءِ تطول، فوكزني شاعرٌ بجانبي يقول:

---

(١) مُلَحًا: جمع: مُلْحَة، والمُلْحَةُ: نُكْتَةٌ، كلمة ظريفة تُرَوِّح عن النَّفس.

(٢) الحَبْر: العَالِم.

(٣) تترى: تتتابَع وتتوالى.

عرِّجْ بنثرِكَ يا رفيقَ الحاوِي
و اغزلْ لنا بالدُّرِ يا مكَّاوي
حلِّق بِنا فوق السّحـاب وقُلْ لنا
بلآلئٍ ماذا يقُـولُ الـرَّاوِي
أمْتِعتنا بجميلِ عُرسِكَ قـلْ لنا
أَلِمُصطفى التصفيقُ أم للهاوي؟
كم ليلةٍ مرَّت و هانَ مرورُها
و جميلُ ليلِكَ طُرفةٌ وحكاوي
بِشْرٌ و أخلاقُ الكرامِ لديكمو
و لذيذُ أصنافِ الطُّيوبِ تُداوي
يااابنَ الكرامِ بسطتَ وجهكَ فرحةٌ
و فِعالِكم مع اِسمكم بِتَسَاوِى
دامت دِيارُ العِـزِّ عامِرةً بكم
ويدومُ نثرُك يا رفيقَ الحاوي

المَقَامَةُ الكَرْشِيَّة

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

بينما أحُطُّ رحْلي[1] وبضاعتي، وأُتمّمُ في السوق على حاجتي، إذْ بصديقي جابر بن حوَّاس، يلوحُ من بعيدٍ يحملُ الأكياس، يترنّحُ لاهثًا تتلاحقُ منه الأنفاس، قادمًا ـ للتجارة ـ من مدينة بلقاس[2]، يتوارى مُتحرِّجًا من لُقيا الناس؛ فقد برزَ كِرْشُه وتَدلْدَل[3]، وتغير حاله سوءًا وتبدّل، وبدا وكأنه الرجلُ الأثْجَل[4]، وقد سال عرقُه مبلِّلا جلبابَه، فصاحَ ينادي مشيرًا بالسبّابة، يتعثرُ متكفّئًا في بُردَيْن: هلُمَّ يا ابن أبي العينين؛ فهرعتُ مهرولًا إليه، لأحطَّ ما ثقلَ على كتفيه، وآخذُ منه ما أوجعَ يديه، وكان منّا السلامُ الحار والأحضان؛ حتى عمّ بالدفْء والحميمية المكان، وثنيّتُ بالسؤالُ عن أمورهِ وأحواله، والاطمئنانُ على صحتهِ ومآله، وكيف حال الزوجة

---

(١) الرَّحْلُ : ما يُوضَعُ على ظهر البعير للركوب، كلُّ شيء يعدُّ للرحيلِ من وعاءٍ للمتاع وغيره، والجمع : أرْحُل، ورِحال.

(٢) إحدى مدن محافظة الدقهلية.

(٣) تَدَلْدَلْ: تهدَّل، اسْتَرْخَى.

(٤) الأثْجَلْ: من عَظُمَ بطنُه واسترخَى، جمع: ثجل، مؤنث ثَجْلاء.

والأولاد، بعدما آثرَ الغُـربة والبعَاد، ثم انتحَيتُ به لأقرب بُستان؛ فلقد أوحشني إذْ لم أره من قديم الزمان، وتذكرنا أيامًا لها السُّقيا، وأطفَئنا لهيبَ الأشواق بُعيْد الُّلقيا؛ فقد كان لي جارًا ورفيقًا، وأخًا لم تلدْه أمي وصديقًا، ومُعينًا لي على نوائبِ الدهر، ومُصبِّرًا لي ساعةَ الابتلاءِ والقَهر؛ كان جابرُ مرِحًا خفيفَ الظل، أتَّقي بروحهِ الشّفوفَةِ وأستظِلّ، ضحوكًا بسّامَ المُحيَّا، يفيضُ على الجلسةِ أُنْسًا وريًّا، فقلتُ له: أتذكرُ يوم كذا وكذا، وكيف قلّدنا الزميلُ وحذْوَنا حَذَا؟ فقال: ليت أيامَنا بقيَتْ ودامَتْ، وشمسَها ما غربتْ ولاغابتْ! ثم اغرورقتْ عينا جابرٍ بالدموع، وشهق بالبكاء في خنوع، وبدا مهمومًا عاقدَ الجبين، مُتلَعثمًا لايكادُ يُبين، فقلتُ: ماذا بك ـ بالله ـ ياجابر؟! علمتُكَ مرِحًا في الزمن الغابر؟ فهل أصابكَ ـ لاقدّرَ الله ـ سوء؟ أم حملتَ فوق كاهلك ما ينوء؟! ، وما كل هذا اللحم الذي تحمِل؟! أطْنِب في الحديث ولا تُجمل، فتنهَّدَ تنهيدةً كبيرة، أصابتني بالقلقِ والقشعريرة، ثم انثني في جلسته ومال، وبدأ يحكي فقال: أخوك ـ كما تعلم ـ يعشقُ الطعام عشقًا، ولا أري بينه والهواءِ فرقًا، فانفجرتُ من الضحكِ مُستلقيًا على الأرض، وقلتُ هاتِ يامَن طوله صار كالعرض!

فقال: لايكادُ ينبلجُ[1] من الظّلام النهار، حتى تمتد أمامي سفرةُ الإفطار: عشرةُ أرغفةٍ قمحيٍّ مخبوزة، في التنّور الكبير للجارة (لوزة) ، وخمسَ عشرةَ بيضةً لدجاج بلديّ، إذْ لا أُحبُّ البيض الوزاريّ، مهروسةً في قشدةٍ سائلة،

(١) ينبلجُ: يشرقُ ويضيء

منفردًا لا شأن لي بالعائلة، وطبقٌ من البطاطس في الزُّبدِ مفعوصة ، ضافية[1] عليها غير منقوصة، والباذنجانُ مشويًّا ومخللا، محشوًّا بالشطةِ ومُتبَّلا، والفولُ يتجمّلُ بصنوفه، يرحبُ بآكليهِ وضيوفِه؛ فهذا بالطحينةِ والزيتِ الحار، وآخرُ بالزُّبدِ يصحو من رائحته الجار، وأقراصُ الطعميةِ الكبيرة المقرمشة، يزخرفُها السِّمسم وأخرى محشوَّةً ومحبَّشة، والجبنُ القديمُ سيد الطعام، يثير الشهيةَ عالي المقام ، ثم أحبسُ بكوبٍ من الشاي كبير، فيه من السكرِ الكثير، فهل بذلك أكونُ مسرِفًا، أو مبذرًا ـ يارفيقي ـ ومُحرِّفًا؟ لالا، كلا وحاشاك ياجابر! فأنت على الجوع جلدٌ وصابر!

وماذا ـ بربك ـ عن الغذاء؟ أم أن الإفطارَ يكفيك للعشاء؟!

يقول جابر: ما كان لي أن أُهملَ الغذاء؛ فهو لي ترياقٌ ودواء، يصبِّرني حتى يجيء المساء، أما غذَائي فاسمع ولاتعجب، ولا تملّ منّي وتغضب: إنه المحشيُّ بشتى الأنواع والصنوف، فأدورُ بين أصابعه وأطوف؛ فهذا كرنبٌ وذاك باذنجان، هذان فقط هما الصنفان؟ لا بل ورقُ عنبٍ ومحشيُّ البصل، وكذا الكوسةُ والفُلفل قد حصل، وهذا الأُرز وصنوف المكرونة، والخضرواتُ مطبوخةٌ ومقرونَة، واللَّحمُ ضافٍ وأخصُّ السَّمين، فله يحرفني النهمُ والحنين، ثم البطُّ العتيقُ السودانيّ، فما أشهاهُ محمّرًا في السمنِ البلديّ! وربّما تناوبَت الأسماكُ مع اللحوم؛ فأعرّجُ بين أنواعها وأحوم، فتلك صينيّةٌ في الفـرنِ مدسوسة، ثم تُفتّتُ كالتّونة المهروسة، وآخر في الزيتِ محمّرًا

(١) ضافيةٌ: كثيرة غزيرة سابغة.

ومقليًا، وقد يكون في الفرن بين الفحم مشويًّا وأُسوِّغُ[1] ما آكلُ بالمياه الغازية، باردةً في عُبواتها الأصلية، ثم أنتقلُ إلى الفاكهة والحلويات، وأُحبِّذُ البسبوسة المحشوَّة بالقشدةِ والمكسرات، ورقائق محشوّةً تُدعَى الفطائر، مع المرطبات وأنواع العصائر، فهل في ذلك إسرافٌ وتبذير، أم قد جنيتُ على نفسي بالتقتير؟!

يقول الراوي: تبًّا ثم تبًّا لك أيها الكاسر[2]، خبتَ والله وأنت الخاسر، فماذا بقيَ من صنوفِ الطعام لتأكل؟! وفي أي معدةٍ تُعبئ كلَّ هذا وتحملْ؟! وأين موضعُ النّفَسِ والشّراب، كما خبّرَ النبيُّ الأصحاب؟ وكيف تحملكَ بعد هذا قدماك؟! قبَّحك اللهُ وخابَ مسعاك!

يقول جابر: هوِّن عليك يا ابن أبي العينين، أتهزأُ بي وما رأيتك من سنتين؟!

فماذا لو أبصَرَتْ عيناك عشائي، وأنا ألهثُ الخُطى أكابد عنائي؟!

ستضربني ـ لامحالة ـ بخُفِّك، وترميني بأقبح وصفِك؟!

وهل بعد كل هذا الغذاء طعام؟! قُل فليس عليك بعد الساعة ملام!

قال: أما وقد زحف وحلّ المساء؛ فسيحْلو ويطيبُ لي العشاء، فانظر بم أختم يومي، ولله دَرُّ أسرتي وقومي: عُلبةٌ كبيرةٌ من الزبادي، لفتح الشهية ريثما أُنادي، أتعجّل الزوجةَ فتأتي تتكفَّأ، فهي الطاهيةُ الفُضلي والأكفأ، وبإيماءةٍ

(١) أُسوّغُ: أجعلُهُ سهلا مُستساغًا.

(٢) الكاسر: نعت يطلق على جنس طير من رتبة الجوارح التي تنقضّ على فريستها ، كالصُّقور والنُّسور والعُقاب.

إليها لا أزيد، تمثُل حاملةً حزمةً من السفافيد[1]، مطوَّقةً بلحم يُسمى الكباب، ملفوفًا برقائق الدهن يأخذ بالألباب، والرائحةُ تتسللُ مجتازةً كلَّ باب، فتشرئبُّ الأعناقُ وتتسعُ الأُنوف، ويسيلُ اللعابُ من لحم الخروف، ويأتي الخبزُ البلديُّ بلا عدد، ومن حار الشطّة والمُخللاتِ يأتي المدَدْ، والطحينةُ يرافقها صنوفُ السلاطات، وأشكالٌ وألوانٌ من الخضروات، ورقائقُ للبطاطس تُدعى (الشيبسي) ولترين من مياهٍ غازيةٍ يُقال لها (البيبسي) ثم أحبسُ بفنجانٍ من القَهوةِ اليمانية، مرسَلة مِن المملكةِ الأردنية، منحة من صديقٍ وهدية.

هذا هو العشاءُ بيْد أنه ضئيل، فأنا إلي التقليلِ ليلا أرغبُ وأميل.

هذا طعامي من الإصباحِ إلى المساء، وبأنعُم الله حدّثتُك بالعطاء، مُستعيذًا بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْر[2]، فهل في ذلك حَيْفٌ وجَوْر؟!

يقول ابن أبي العينين: كلا وحاشاك وقبّح الله مَن عاداك!!

الآن علمتُ كيف داهمَك اللحم، وعلاك كل هذا الورم والشّحم، فجثمَ كالوحْش الرابضِ على أنفاسك، وصرتَ عبئًا على أهلكَ وناسك؛ لقد جعلتَ الأَطعمةَ صَنعتَك، و شهيَّ صنوفِها قِبلتَك، والحُلوَ والدُّهنَ ديدنك وشرعتَك، فكان من أمركَ ما كان، فلا تكاد تبرح من الثِّقلِ المكان، تبًّا لنفسكَ الضعيفة الجانية! إذْ أوْدَتْ بوزنكَ إلى المائةِ الثّانية، ينطلق كرشُك وأنت تتبَعُه، تزجرُه أمامك رغمًا وتدفعُه، وأرهقتَ عظمَكَ فما استطاع

(١) السَّفافيد: جمع: السَّفُودُ: وهوعودٌ من حديد يُنظَمُ فيه اللحمُ ليُشوَى.

(٢) الكَوْرُ: الزيادةُ، نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر: من النقص بعد الزيادة.

حَمْلا، وتقوَّسَ ظهرُك فلا يطيقُ حِمْلا، وصليتَ على المقعد وفارقتَ السجود؛ فالكرشُ حدودٌ تمنعُك وسدود!

هيا انهضْ بنا ولا تكْسَل، وكُفّ عن الكلام ولا تسترسِل؛ لنلتمسَ لدي الطبيبِ تخسيسًا، ولعلَّهُ يُدَبِّس لكَ المعدةَ تدْبيسًا! ولاتُحدِّثْني بعد ذلك عن الطعام، ويكفيكَ بعضُه لتحيا في سلام؛ فاستجاب جابر على مضضْ، بعد توبيخ مني وحَضَضْ[1]، وتركنا البضاعةَ في السوق للخلان، و جابرُ خلفي يلهثُ لنغادرَ المكان، يمتدحُ الكِرشَ مُغمْغِمًا، ويُنشدُ الشعرَ مُجَمْجِمًا:

أُخاطبُه فيُصْغي باعتدادِ
و في قلبي له كلُّ الودادِ
رفيقي في السُّرور وفي الرَّزايا
و رافعُ شُهرتي بين العبادِ
وأبذلُ في سبيل رِضَاه مالي
فيطلبُ ما يشاءُ بلا انْتقادِ
سُنون العمر تمضي كالثَّواني
و يصبحُ كلَّ يوم في ازْديادِ
به الدنيا تهونُ بما تُواري
و راحةُ نومتي تحت السُّهادِ
يقرِّبُ حاجتي عند البعَادِ

(١) حَضَضْ: حثٌّ وتشجيع.

و يُدنيني إذا حانَ ابتعادي
وِسادةُ خاطِري ودواءُ رُوحي
و مُتَّكَئي و مُرْتاحُ الزِّنَادِ
له في العينِ تقديرٌ و حبٌّ
بطول الدهرِ أو عرض البلادِ
تراكمَ سَمنُهُ تحت الثَّنايا
فأرضى مُهجتي من كل زادي
له في الأفقِ أبعادٌ و ظلٌّ
و يسبقُ ناظري في كلّ وادي
يقولُ الناسُ أنّ الكرشَ داءٌ
ويزعُم صاحبي سببَ السَّوادِ
و يطلبُ آخَرُ مني ريچيماً
وما علموا بحالي في انفرادي
فمَن لي بعد كِرْشي في البَرايا
ومن يختارُ لي صِدقَ الوِدادِ
أفارقُ زوجتي و جميعَ أهلي
وأهجرُ مَصَنعي قبلَ النّوادي
ويبقى الكِرْشُ مُتكئي صديقي
أُسِرُّ لهُ بأخبارِ العَوادِي

المَقَامَةُ القَهْوَجِيَّة

حدثَّنا ابنُ أبي العينين قال:

هاجَتْ عليَّ قواطعي وأضْرَاسي، وكادَ يفتِكُ الصداعُ براسي، فهممتُ مُنصرِفًا تاركًا جُلّاسي، وكذا أهلي وعشيرتي وناسي، أتخبَّطُ في الحوائطِ وأتحسَّسُ جُدْرانا، لا أدري وِجهتي ولا أنْتوي مكانا، عيناي تسْرِجُ وتصْفرُ أُذناي، لطفكَ اللهمّ إلهي ومولاي، فتداعَى لمُخيِّلتي طبيبُ أسنانٍ أريب، شابٌّ طُلَعَةٌ[1] ذِكرُه يطيب، زينةُ المجالسِ وحِليتُها، وبهجةُ النُّفوسِ وفرحتُها.

ضاقت البلادُ عن تطلُّعاته وطُموحه، وعجزت العادياتُ عن حِصانه وجُموحه، نحيلٌ رقيقٌ ديِّنٌ أسيف، عاشقٌ لأحبابه ذو وجهٍ لطيف، يتهدَّلُ شعرُه الأثيثُ على جَبينه، يُشِعُّ الأملُ من لآلِئِ عيونِه، شوَّافتُه تُضفي البهاءَ والألَق، يفوحُ من طيَّاتِه العبيرُ والعَبَق، تلتمعُ وتبرقُ ثناياه، حين يبتسمُ أو يضحكُ مُحيَّاه، يسمو بإنسانيّته ويرتقي، تُحبُّه بمجرد أن تراهُ وتلتقي؛ إنه الدكتور (أحمد الفِقي).

فتحسَّستُ هاتفي أنشدُ رقمَه، فقد خَطَّه لي بيدِه ورَقَمَهْ، هاتفتُه والكلامُ من فمي يتقطَّع، والألمُ يتربَّع لديَّ ويتمطَّع، يدفعُني الحبُّ ويمنعُني الخجل:

---

(١) طُلَعَة: الطُّلَعَةُ : النابه، الواعد، الكثِيرُ الطلوع أو التطلُّع

هلّا جئتني يا أحمدُ على عجل، أنتظرك على شاطئ البوهيَّة، تحت شُجيرات الكافور النديّة، أكظم غيظي وأقاوم النُباح، و لساني يعجز عن الكلام المُباح.

وإذ به يلوحُ من بعيد، واثقُ الخطا ذو رأيٍ رشيد، يسبقه نشْرُه الفوَّاح، يطيبُ من المساء إلى الصباح، يحتضنُ بشغفٍ عُدَّة القهوة، وقد مكّنها فكانت لها الحُظوة: موقدٌ نُحاسيٌّ يُقالُ له (السِّبرتاية) فذُهلتُ وتبدّدت لديّ الشّكاية، والكَنكةُ وبعض الفناجين والسُّكر، فبنُّ العميدِ ورائحتُه تُسْكِر! كل ذلك في مظروفٍ من الكرتون، كأم لصغارها رؤوم حنون؛ فاعترتني الدهشةُ والوجوم، ولم أستطع من مكاني أن أقوم!

يقول الراوي: عجبت لأمرك يا دكتور، ولم أنتَ هكذا مسرور؟! فبادرني يقول: وكيف لا أُسرُّ وحولنا الماء النَّمير، يشدو مترنِّما بأنغام بالخرير، وتحلِّق فوق رؤوسنا العصافير، تتدلّى حوالينا أغصانُ الصفصاف والكافور، وكأننا في الجِنان وينقصُنا الحُور، ومعي روحي وحبيبتي ، رفيقة دربي، أُنسي قهوتي، فشُغِلتُ عن آلامي وأوجاعي، وأثارَ كلامه شوقي والتياعي.

فقلت: أحدثك عن لثَتي وأسناني وما أهمّني وآذاني، وأنت عن القهوةِ تُشنِّف آذاني؟!

ثم قال وأطنبَ، واستفاضَ وأسْهب: خُذ عني ولاتعاجلني بالسؤال، وإلا انصرفتُ عنك في التوِّ والحال: البنُّ أنواع وصنوف، وألوانٌ وروائحُ تطوف، تربو على العشرين وتزيد، ولكل صِنفٍ منهم طعمٌ فريد، وأشهرها البنُّ اليمانيّ، أقولها والعُهدةُ عَليّ؛ فهو الأجودُ والأغلى سعرًا، ويُنشدُ فيه

المحبون شِعرا، يجلبُه من للصنعةِ يُجيد، ويُطلقون عليه بنَّ العميد؛ فهو المشهور الأشهر، وعلى ضبط المزاجِ الأقدر، رائحتُه توقظ النائم، ويهيمُ بها اليقظان والقائم، أما النَّكهة والمذاق، فسل المُحبّين عنه والعشَّاق، سواءً الفاتح منه والغامق، فهو يسمو إلى العُلا سامق، وملمسه ناعمٌ كالحرير، يحطُّ الحُسْن لديه ويُشير، فكم ألهمَ الأدباءَ قصصًا وأفكارًا، وأسال من قرائح الشعراء قصائدَ وأشعارًا، وصبَّ في عقول العباقرةِ العلمَ مِدرارا! ويليه البنُّ الحبشيّ فالبرازيليّ، ثم يأتي رابعًا الإندونيسيّ، وأنواع بالهند وساحل العاج وموزمبيق، وأُخرُ يعجز عن حصرها الوقتُ ويضيق، ولفُحشِ أسعار اليمنيّ، يُحبِّذُ المصريون البرازيليّ، أو خليطا منه مع الحبشي والأندونيسي، أما دولُ الخليج فالقهوةُ العربيةُ يُفضّلون؛ لذا فعلى اليمنيّ يُقبلون.

يقول ابنُ أبي العينين: يالَرأسي! مالي يادكتور وماتقول؟! بقي أن تذهب بي إلي الحقول، حيث يُزرعُ البنُّ ثم تُجنى البذور، وتُحمّصُ وتُقسّمُ في قدور! إي نعم، ولو زِيد في تحميصِه لصار غامقا، ولو خفَّ لأصبح فاتحًا رائقًا، وبعض العربِ يُفضلونه خَشِنًا مُحبَّبًا، أما الناعمُ البودريُّ بات لدى المصريين مُحبَّبًا؛ كي يطفو ويغلُظَ وجهُ الفنجان، وتلك علامةٌ للجودةِ وعُنوان.

وتابع قولَه الدكتور، ورأسي يلفُّ ويدور: واحذرِ المُقلّدَ من البُنِّ والمغشوش، بإضافة أشياءَ عليه كـ رُتوش، مثل الفول السُّودانيّ أو نوَى البلح، وقد ذُكِرَ ذلك في الطرائفِ والمُلَح.

يقول الرَّاوي: حسبُك ماقلتَ يا رجل، وهيا أشعل لهبَك على عجل! لقد أسلتَ من شوقٍ لُعابي، فنسيتُ آلامي وما بي ،فهلّا أتحفتنا منها بفنجان؛ عساها تُنسيني آلام الأسنان؟ فافترشنا الأرضَ قبالةَ الماء، يصفو رائعًا بزُرقةِ السماء، وأشعلَ موقدَه النحاسيّ بالقدّاحة، فشعرتُ معه بأريحيّةٍ وراحة، ووضع ملعقةً من البُنِّ وأخرى من السكر، وأنا أرقبُ فعلَه وأتفكَّر، وشرع يقلّبهما في ماءٍ مُثلَّج، يبسم ثغره عن صفٍّ مُفلَّج، فقلتُ: ولمَ اتَّخذتَ الماءَ باردًا ومُثلَّجًا، صلدًا كالأحجارِ مُزجّجا، فقال: كي تطيبَ القهوةُ وتختمِر، ويطول مُكثُها على النار وتستمِرّ، فلا تُسلَقُ على عجلٍ وتفور، ويسقطُ وجهها ويغُور، فقلتُ: الله الله .. لله درّكَ يادكتور، وشرعَ يعلو بالكنكةِ ويهبط، يُحكِم زِمامَ يده ويضبِط، يُبعدها عن النار ويُدنيها، يُعتِّقُ فيها ويُسويّها، وعندئذٍ احْمرَّ وجهُها من الخجل، كبِكْرٍ تُستأمرُ لزواجها على عجل، يتراقصُ مُحيّاها غِبطةً وسعادة، ولا تأبهُ بنارٍ تكويها بزيادة، تتماوجُ للُقيا حبيبها الفنجان، وإذْ به يصبُّها برفقٍ فيلتقيان، يذوبان عشقًا ويتعانقان، وساعتئذٍ تفوح رائحةٌ ليس لها نظير، يكاد من عبقها الفؤاد يطير، فتذكّرتُ حينها الماضي مجيدًا، مُدنًا وممالكَ وشرفًا تليدًا، فتحًا ونصرًا وأندلسًا زاهرة، دامت بالعلوم والفنون عامرة، ثم أفقتُ على الفنجان أعطانيه الرجل؛ لأحتسي منه بحرصٍ ووَجل، خشيةَ نفاده فيتبدد الحلم، وأعودُ أدراجي لواقعٍ وعِلم، وجِراحٍ في جسدٍ هدّهُ الإيلام، وأوجاعٍ ألجَمتْ الحروفَ والكلام.

يقول ابنُ ابي العينين:

ولقد أذهلتني اللّذةُ والشَّهوة، وفوجئتُ بآخر رشفةٍ من القهوة، ونفدَ معها الحلمُ الجميل، وتلاشي مع رشفاتها المعنى الأصيل؛ لتنبحَ بعهدها بضراوةٍ أسناني؛ فطوَّحت ـ بعزمٍ في النهرِ ـ فنجاني، وعاودتني الآلامُ تصعقُ كالكهرباء، تسري في فكّي بلا تسويفٍ أو إرجاء، فنهرتُ الرجُلَ أهمزه قائلا: أتتغافلُ عن آلامي فلا أراكَ سائلا؟! قم بنا عجّل إلى العيادة؛ فقد حال الألم بيني وبين السعادة، فلملمَ الرجل ـ على مضضٍ ـ عُدَّتَه، وكشَّر عن أنيابه وأبدى شِدَّتَه، بعدما قطعتُ عليه حبلَ أفكاره، وحُلتُ بينه وبين خيالاته وأشعاره، وفرّقتُ بينه وبين معشوقته، ولم يحتسِ بعدُ فنجانا من قهوته، وانطلق أمامي ينفخُ ويُزمجر، وأنا خلفه أتأوّهُ ولقدمَيَّ أُجَرجِر، تتراءى أمامي الكَلّابةُ والكاحِتُ والمِسْبار[1]، فترتجفُ أوصالي ويُصيبني الدُّوَار، فلُطفًا بنا اللهمَّ ياربَّ السماء، وبُرْءًا من كل داءٍ وشفاء، وأنشأ أحمدُ يُصبِّرُ نفسَه ويقول، وقد ارتسم على وجهه الذهول:

يا قهوتي أهوى المسير إليكِ
وأقاوم التاريخَ نحو يديكِ
النور يشرقُ حين يبسُم ثغرها
وجميع أحلامي صدى عينيكِ

(١) الكَلّابةُ والكاحِتُ والمِسْبار: بعض أدوات طبيب الاسنان

لا عطر في الدنيا يشابه عطرها
و القلب يحلم بالأمان لديكِ
يمنيّة تزهو ببالغ سحرها
و نعُومة الأنسام في كفيكِ
يا منتهى الآلام يا كلَّ المنى
روحي تذوب من الحنين عليكِ
أنتِ الدواء وأنت عشقُ نفوسنا
طوبى لمن يغفو على خديكِ
فلتحضني روحي ليطلع فجرُها
و تذوب آهاتي على شفتيكِ

المَقَامَةُ الأَجَاوِيَّة

حكى ابنُ أبي العينين قال:

ضربْتُ في الأرض أنشدُ المُرتَجَى، يقينًا في الله خوفًا ورَجَا، قاصِدًا صديقًا لي بمدينةِ أجَـا، حتى داهَمني الليلُ فاحلولَكَ وسَجَى[1]، فوقفتُ على الطريق أتحسَّسُ سيّارة، غيرَ أنّ الطريقَ انقطعَ من المارّة، إلا مِن رجلٍ يمتطي شِبْهَ حِمارة، تندِبُ برأسها ألمًا مِن العَـرَج، فقلتُ ـ فرحًا ـ في نفسي، بعدما تملّكني يأسي: لقد ساقَ الله لِيَ الدليل والفـرج، وأقبلتُ عليه راجيًا بلاحَرج: هلا أرْدَفْتني خلفكَ ياعَـمّ؟ فرمقني رافضًا مُتعجّبًا ثم تمتمَ واغْتمّ: عجبتُ والله من بعض البشر؛ لم يعد في وجوههم ـ البتّةَ ـ نظر! كيف تحملُنا هذه العَـرجاء، وهي لاترى بالنهار فكيف بالمساء؟! ثم تماديْتُ عليه مُتحامِلا، ورجوتُهُ النُّصحَ قائلا: رفقًا بي ودُلّني على الطريق، فأنا غريبٌ وأنتَ القشَّةُ لغَـريق، فأشاحَ بيده مُشيرًا أن هُنااك ، فتلك البلدةُ هي مقصِدُكَ ومُبتغاك؛ فما كان منّي إلا أن ركِبتُ قدميَّ، تقودُني خُطاي وتحملقُ مُقلتيَّ، إلى أن وصلتُ إلى مَحَطّ آمالي، لاهثًا يرِقُّ الرَّائي لحالي:

---

(١) سَجَى: سَكنَ أو اشتدّ ظلامه

مدينةٌ يرحلُ الحُسنُ إليها ولا يعود، يفصلُها فرعُ النيلِ عن جارتها سمنّود، ويعلوه كوبري حديديٌّ أثريٌّ يروق، افتتحه ـ قديمًا ـ جلالةُ الملك فاروق، سقاها الله أيامًا زاهرات، كانت سُنبلاتُها خُضرًا مائلات.

وشعبُ أجا طيِّبٌ كريمٌ ودُود، يُكرِم الضِّيفانَ يسخُو ويجود، وهي واسطةُ العِقدِ إلى المنصورة، حيث دار ابن لُقمان ولويس مُصفَّدًا[1] في الصورة، وشجرة الدُّرِ تديرُ بدهائها المعارك، وتدحرُ الصليبيين عن البلادِ والممالك، ونجمُ الدين مُحنَّطٌ في التابوت، فسبحان مالك الملك والملكوت!

وأجا واحةٌ من مدنِ الدلتا الخضراء، تزهو مزدانةً بحدائقَ غنّاء، تتلألأُ على جانبيها جنّاتُ الفواكه والأعناب، تتدلّى قطوفُها تأخذُ بالألباب، جئتُها أبحثُ عن صديقٍ لي فيها يقطُن الـ (مِنْية)، إذْ كان هو هدفي ومقصدي والمُنْية؛ فمِنيةُ سمنّود إحدى قُراها العريقة، تليدةُ أصيلةٌ وعتيقة، فطفقْتُ أبحثُ فيها عن حَسَنَةِ الأيام، أخي وحبيبي (الأجاوي حُسام): بلبلٌ يشدو بأعذب الألحان، كم هيّجَ أشواقًا للنبي العدنان! وأثارَ بصوته تباريحَ وأشجان، تجعلُ القلبَ يهفو ويطير، وكأنَّ في حَلْقِهِ مزَامِير، بدرٌ تلألأ في إذاعةِ القرآن، وضيئُ المُحيَّا ممشُوق القوام، بهيُّ الطَّلعةِ مُنسَّقُ الهِندام، حباهُ اللهُ حُسْنًا وألَقًا، يجتمعان لديه فما افترَقا، أتلمَّسُ يومَه عبر الأثير؛ فهو مُنشدِي الأغَرُّ الأثير، يصدحُ

(١) مُصفَّدًا: مُقيَّدًا

بأذانٍ يُوقظُ القلوب، وابتهالاتٍ تجعلُ العاصي يتوب، يلوذُ بمولاه باكيًا ويؤوب.

ولكَم شرَّفنا في الحفلات والأمَاسيّ، في المسجد الكبيرِ والرحمةِ والعَبَّاسيّ! في مسقطِ رأس صديقه الألمعيّ، والعَلَم القرآنيّ الإذاعيّ؛ فخر البوها وكثيرًا ما تجود؛ إنه الأزهريّ الإعلاميّ فوزي عبد المقصود، يُلبّي ـ باذخًا ـ مَن دَعاه، أكرمَهُ ربُّه ومولاه، فسبحان مَن وهبهُ واصطفاه!

ويُنشدُ من قريضِ الشاعر طارق إسماعيل، رائقَ الأبياتِ من الشعرِ الجميل، ترياقٌ للمُعنَّى وداءٌ للعليل، فبورك أبوأحمد إذْ يقول، ويمدحُ عاطرًا في النبيّ الرسول!

فمن يدلّني عليه ياقوم؟ فلقد أضناني البحثُ طِيلة اليوم.

يقول ابنُ أبي العينين:

ثم ذهبتُ إلى المسجدِ لأداءِ الفريضة، وإذْ بشيخٍ يُدعى (عزت أبوعريضة) يُشنّف برائقِ صوته الآذان، وكذا الشيخُ الرقيق أبو الحَسن، ذو الصوت الأسيفِ الحَسَن، وكانا يتلوان القرآنَ في عَـزاء، يتعالى صوتُهما فيرتقى للسماء، وبينا أنا أذكرُ أخي حُسام، إذْ انبرى مُعلّمٌ جهبزٌ هُمام، عليه سيما الصالحين رفيع المقام، سويديٌّ ويُدعَى (سعد)، فقال: أنا أدُلُّك وأفي بالوعد؛ فهو لي صديقٌ حميم، وخيرُه علينا سابغٌ عميم، ثم ابتلعَنا طريقٌ

طويل، وأنا مُستمتعٌ معه بحديثٍ جميل، فقلت: هلّا حدَّثتني عن سيرةِ حُسامٍ أستاذَنا سعد؛ لنطويَ الطريقَ ويقتربَ البُعد؟ فقال: وأنا بكلِّ خَبَرِهِ زعيمٌ، وسآتيك به من قديم، فاسمع منّي طريفَ الحكاوي، ولا تَملّ منّي أيُّها الرَّاوي: نشأ حُسام في عِزبةِ الأجاوي مُدلّلا ومُحبَّبًا، ومن قلبِ أبيه (مُحمدٍ) كان مُقرَّبًا، وجَدُّه الحاج راضي لمسجدِها خادم، وهو رأسُ العائلةِ لكل القَوادِم.

ترعرعَ حسام في أُسرةٍ متوسطةِ الحال، ولكنّ دوام الحالِ من المُحال؛ إذْ ماتَ الجبلُ الذي به يحتمي، وفي أحضانه يتنعَّمُ ويرتمي، تركَهُ بعد خَمْسَ عشرَةَ يافعًا، فلبثَ في كهفِ أحزانهِ قابعًا، وانفرطَ عِقدُ العائلة وكان منه الواسِطة، وداهَمتهُ الخُطوبُ وانفكّت الرَّابطة، وتناوشَتهُ الهمومُ بأنيابها والفَاقة، لكنه قاومَ وانتفضَ بعد استفاقَة، وانضَوى إلى الشريعةِ والقانون، يحدُوه عزمٌ وإصرارٌ كي يكون، وبالفعلِ فقد كان وكان، فسبحان الرّحيم بعبادهِ الرّحمن، بعدما عدَّل الرغبةَ والمسَار؛ ليدورَ في فَلك النجومِ والأقمار.

ولقد قدّم أوراقَه ـ بعد ذلك ـ في الإذاعة، بعدما سمعهُ الإعلاميون والجماعة، في قريةٍ مجاورةٍ تُدعى (الناويّة)، يحبونه جمًّا كما كلّ البريّة، يتقدّمُهم (محمد البديوي) صديقًا، مُخلصًا لحسامٍ وكان رفيقًا، ثم أُجيز من العمالقة يترأسُهم أبوالعيْنين شعيشع، فأضحى يُبدِّدُ الغُيومَ وللأحزانِ يقشَع؛

لينتظرَه رفيقُ الدَّربِ وتوأمُ الروح؛ (وليد العَشريّ) حبيبُ القلبِ وبلسمُ الجُروح، والدموعُ على خدَّيْهِ تتقاطَرْ، فرحًا بأنْ جبرَ اللهُ الخواطِر، ثم تعالَى في مساجدِ المحروسةِ أذانُه، وذاعَ صِيتُه في عصرهِ وأوانِه، ودخلَ المسجدَ الزَّينبيّ مُفضَّلًا مَرغوبًا، مُتألّقًا مُتأنِّقًا محبوبًا، يبيتُ في استراحةِ الكِبار، من الإعلاميين والقرّاءِ والزُّوَّار، بعدما طُرِدَ منه سالفًا، ونام في شُبّاكِه آسِفًا، ولم يطُلْ به المقامُ في البلاد، ورحلَ يلتمسُ الرزقَ في البعاد، وظلّ مُغتربًا أحدَ عشرَ عامًا، يُغرِّدُ خارجَ السِّربِ إقدامًا، إلى أن عادَ الطيرُ إلى عُشِّه؛ ليُدفئَ فرْشَهُ وقشَّهْ.

هذا ماكان من أمرِ حُسام، فله ولك منّي السلام، ثم أشارَ إلى منزلٍ ليس بالبعيد، قائلا: وهذا منزله الجديد، ويقطنُ فيه مَن تريد، وإذْ بصوتٍ ملائكيٍّ يشدو ويقول، ويُنشدُ في مدحِ وحبِّ الرسول، فسرَى صوتُه في الآفاق، يُعطّرُ ليلَ المُحبِّين والعُشَّاق، في شهرِ ربيعٍ حيثُ مولد الحبيب، فبذكرهِ يحلو الكلامُ ويطيب.

يقول ابنُ أبي العينين: ثم طلبنا الإذنَ بالدخول، فسُمِح لنا وصِرنا بحضرته مُثول، وسُرَّ وجهُ حسام واستنار، وقال مرحى مرحى بالزوَّار!

وتعانقت الأجسادُ والقلوب، والتقى الحبيبُ بالمحبوب، ومُدّت الموائدُ بالطعام، وطابَ بعدها المقام والكلام، ثم انبرى الحبيبُ حسام، يبتهلُ مادحًا خيرَ الأنام، مِن رائقِ الشعر الجميل، للشاعر طارق إسماعيل:

أُمُّ الحبيبِ تعطَّرت بشذاهُ
وتحدّثتْ بالفخرِ في ذكراهُ
قالتْ تجمّلَ بالبهاءِ وبالسَّنا
نـورٌ أَهـلَّ بمولـدٍ يغشـاهُ
نورٌ أَضاءَ الكونَ عند ميلادِهِ
جلَّ الذي مِن نُورِهِ سـوَّاهُ
هو صفوةُ الرحمنِ في دنيا الورى
هذا ربيعُ النورِ فيضُ ضِياهُ
وتبسَّمَتْ لجمالِهِ في فـرحةٍ
واسْتبشَرَتْ لكمالِهِ ونَـداهُ
والجَدُّ من خَبرِ الوليدِ مُفَاخِرٌ
بين الخليقةِ مُسرعًا أسْماهُ
أسماهُ بالمحمودِ أو بمحمدٍ
صلي عليه اللهُ في ذكراه

تمت بحمد الله..

المؤلف/ صلاح حامد المكاوي

شعـر/ طـه رضــوان

الفِهْـرِس

	الموضوع	الصفحة
	الإهـداء	٧
	مقدمة المقامات	٩
	تقديم أ.د/ عبدالباسط عطايا	١٧
	تقديم أ.د/ عبدالرحمن فودة	٢٣
	تقديم ناقد الجيل محمد دحروج	٢٧
١	المقامة المحكمية	٣٥
٢	المقامة المدرسية	٤٥
٣	المقامة الفولية	٥٣
٤	المقامة الحريقية	٥٩
٥	المقامة الحلاقية	٦٥
٦	المقامة الرشيدية	٧٥

٧ المقامة السكرية ٨٠
٨ المقامة السوقية ٨٥
٩ المقامة القطارية ٩٢
١٠ المقامة الكوخية ٩٩
١١ المقامة النظّارية ١٠٧
١٢ المقامة الدوائية ١١١
١٣ المقامة الكتابية ١١٥
١٤ المقامة الشوارية ١٢٢
١٥ المقامة التجريسية ١٢٩
١٦ المقامة الفئرانية ١٣٥
١٧ المقامة الثعلبية ١٤١
١٨ المقامة الشتائية ١٤٧

١٩ المقامة الاعتكافية ١٥٣

٢٠ المقامة المشخصاتية ١٥٩

٢١ المقامة المكاوية ١٦٥

٢٢ المقامة الكرشية ١٧١

٢٣ المَقَامَةُ القَهْوَجِيَّة ١٧٨

٢٤ المَقَامَةُ الأجَاوِيَّة ١٨٤